



د.أحمد خيري العمري

تسعة من عشرة

سلسلة ضوء في المجرة

تسعة من عشرة





د. أحمد خيري العمري

يا صديق..

يبدو أنه لا مفر من الأشياء التي نحرص على الفرار منها.

ومنذ أشهر طويلة وأنا أحترف الفرار من هذا الموضوع، وبينما كنت أطارد الكلمات وأقتنص الأفكار في رسائل أخرى، فإن هذا الموضوع كان يطاردني، فأهرب منه، ويلاحقني، فأختبئ منه، وينصب لي الأفخاخ والمكائد، فأتملص منها بصعوبة. ويظل يلاحقني، وأظل أهرب منه.

مثل (فايروس) لحوح عالق على شاشة الحاسب، كان الموضوع يفاجئني في كل مرة أتصور أنني حسمته، وتخلصت منه.

لكن يبدو أنه لا مفر من الأشياء التي نحرص على الفرار منها..

وكنت طيلة الوقت، في أعماقي، في خلفية وعيي، وفي دهاليز عدم وعيي، أعلم جيداً أنه لا مفر! وأن الوقت سيأتي إلى أن أتواجه مع ما أفر منه..

كنت أعي تماماً أنه لا مفر من الأشياء التي نحرص على الفرار منها..

لا مفر مما لا فرار منه..

إنما كنت أحاول التأجيل.



.. والمحامي الناجح يشخص القضية الخاسرة منذ البداية.. ينظر إليها بعين خبرته، ويتفحص الأدلة المتوافرة مليا، ويراجع مراجعه القانونية، وأرقام مواد العقوبات، وربما سوابق القاضي!، قبل أن يقرر هل يقبل القضية أو لا.

إنه لا يلقي بالاً لتأكيدات والدة المتهم بأنه بريء، ولا توسلاتها ولا لدموعها..

.. إنه لا يغامر بسمعته المهنية من أجل قضية .. **خاسرة** .

* * *

.. والجراح الحاذق يتجنب موتاً مؤكداً - على يديه - في غرفة العمليات، ويفضل أن يحدث ذلك في أي مكان آخر.. إنه لا يشجع المريض وأهله على إجراء عملية نسبة نجاحها ضئيلة، حتى لو علم أن الخيار الآخر موت محقق.

المهم ألاّ يحدث ذلك على يديه في صالة العمليات. سمعته المهنية أهم من كل الاعتبارات الأخرى.

إذا كانت الحالة ميؤوساً منها، فإنه يؤجل ذلك، وبدلا من أن يدفعوا له، فإنه يدفع بهم..

* * *

.. ولكن أحيانا، تفرض القضايا الخاسرة نفسها على المحامي الناجح فيقبلها، وليس لديه خيار، لعله يجد ثغرة هنا، أو نقطة قوة للمتهم أو ضعفاً للادّعاء، تحسّن من وضع القضية بشكل عام.

عندما يكون الحكم بالاعدام محتّماً، فإن الأشغال الشاقة المؤبدة تبدو نجاحاً ساحقاً..

.. وأحياناً أيضاً، يفرض الواجب المهني نفسه على الجراح الحاذق أكثر مما تفعل السمعة المهنية، ويأتيه قسمه العتيق ذاك، يوم كان لا يزال شاباً نضراً لم تشوهه المادة بعد، فيضطر أمام توسلات أهل المريض إلى التمسك بتلك النسبة الضئيلة من النجاح، على الرغم من أن النسبة العالية للفشل الممددة أمامه على سرير العمليات. ولذلك.. فإنه يغرس مشرطه في جسد المريض؛ كما لو كان يغرسه في جسده هو، أو جسد ابنه، أو جسد والده.. إنه لا يملك إلا أن يفعل.. أي شيء إلا الموت..

* * *

قضيتي خاسرة يا صديقُ. كنت أعرف ذلك منذ البدء، ولذلك كنت أطلب التأجيل..

لكن يبدو أنه لا مفر من الأشياء التي نحرص على الفرار منها..

* * *

.. ولأني أعرف أنها خاسرة، فإني أعرف أنه ليس لدي ما أخسره..

فلأحاول على الأقل أن أجد ثغرة هنا - ونقطة ضعف هناك..

لعل ذلك يقلل من خسارة القضية.

أو يزيد من نجاحها.

.. وأحياناً - عندما يصدر الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة، تعلو الزغاريد من أهل المحكوم عليه..

خاسرة خاسرة يا صديق..

ما الموضوع؟.

عن السفر أتحدث..

عن السفر الذي عاملته منذ البداية على أنه أمر لا مفر منه، كقدر لا فكاك منه، مثل الموت والمرض، والأشياء الأخرى المماثلة: حتمية ولا يفيد الهرب منها..

عن السفر أتحدث، السفر الذي كان هناك في بالك منذ البداية وقبل أن تبدأ الحكاية كلها.

وقبل أن يبدأ هذا الموضوع كله، كنت قد قلت لي: أن سفرك محسوم، مسألة وقت.

ومنذ رسالتي الأولى، التي كنت أتصورها الأخيرة، كان السفر في بالي، كنت أتصوره وشيكاً، قلت لك وقتها بالضبط: عما قليل سيصفر الحكم معلناً نهاية المباراة.

لكن رسالة بعد أخرى، والحكم لما يصفر، والمباراة طالت ولم تنته بعد.. وكان ذلك مقدراً منذ البداية - أن تطول اللعبة ويتعرقل السفر - تعرف من أجل ماذا..

وطوال الوقت كان السفر جاثماً هناك في بالك، كما هو جاثم في بالي، بل إني كنت قد أعددت حقائب السفر وأمتعتك

وحزمتها ورزمتها قبل أن تفعل أنت..

كنت قد عاملت السفر كما تعاملت معه أنت، أمراً مقدراً لا مفر منه. لم أحاول أن أقترب من هذا الموضوع. لم أحاول أن أثنيك، أو أقنعك، أو أمنعك.. أو أي شيء..

اعتبرت السفر موضوعا لا يجوز المساس به..

واعتبرت أن أي محاولة من هذا النوع هي محاولة مكتوب عليها الفشل سلفاً..

اعتبرت أنها قضية خاسرة، ينأى عنها المحامي الناجح خوفاً على سمعته المهنية..

ولأني لم أرد أن أخسر شيئاً، بالذات معك، فقد تناءيت عن الموضوع، وتغافلت عنه.. ولأشهر طويلة كان الموضوع في بالي، كما هو في بالك، كان يطاردني كما يطاردك..

.. وكنت أحاول الفرار منه..

لكن الآن.. والحكم يكاد يرفع صفارته إلى فمه، يبدو أنه لا مفر من الأشياء التي لا مفر منها.. يا صديق..

* * *

.. وسأكذب عليك لو قلت أن محاولة إقناعك بالبقاء لم تساورني تماماً..

عندما اقتربت منك، وخبرت صدقك النادر [الذي سأظل أشدد أنه ميزتك الأساسية والاستثنائية، وأنه الذي من أجله أنقذك، عز وجل، مما كنت فيه]..

أقـول: عندمـا خـبرت صدقـك النـادر وانعـكاس ذلـك عـلى سـلوكك وعلاقاتـك - سـواء مـع الآخريـن أو معـه، عـز وجـل، عندمـا ولجـت بـاب التوبـة - تحـسرت أن يذهـب ذلـك كلـه إلى مـكان آخـر.. إنـك - ببسـاطة - لا تقابـل صديقـاً صدوقـاً كل يـوم.. وإذا قابلتـه فإنـك بالتأكيـد لـن تريـد أن يـتركك ويسـافر.. بـلا رجعـة..

كان ذلك بالتأكيد ما شعرتُ به عندما اقتربت منك..

بمنتهى الصدق أقول، لكن بمنتهى الأنانية.

* * *

لكـن خـلال ذلـك حصـل شيء كان مقـدراً أن يحصـل، لكـني لـم أكـن قـد وضعتـه في حسـاباتي أو قـراراتي.

لقـد اقتربـت أكـثر، وأكـثر. شـيئاً فشـيئاً تجـاوزت الحـدود وتماهيـت معـك. شيئاً فشيئاً وضعـت نفسي مكانـك، وضاعـت تلـك الحـدود الفاصلـة بـين الـ (أنـا) والـ (أنـت)..

تركـت أنانيـتي مكومـة عـلى المقعـد هنـاك، وتمسـكت بصـدقي وصدقـك.. واقتحمـت..

داخـل جلـدك وجـدت قـارة مـن الحـزن المقيـم، وعـلى طـرف أهدابـك كان هنـاك حجـرٌ صغـيرٌ يرقـم سـداً، يمنـع فيضانـاً هائـلاً مـن الدمـوع..

داخـل الرجـل المتـوازن الرصـين كان هنـاك طفـل لا يقبـل المسـاومة. إنـه لا يسـتبدل بحضـن أمـه البعيـد العالـم كلـه ..

(.. وفي داخل كل رجل - إلاّ ما ندر - يقبع هذا الطفل الذي لا يستبدل بحضن أمه العالم كله، لكن مفاهيم الرجولة التقليدية ومكرسات المجتمع الغبية تكبت هذا الطفل وتقيده وتمنع دموعه وتؤنبه على اشتياقه لحضن أمه.. وهي قد تنجح في منعه من إظهار ذلك ولكن في أعماقه سيظل هذا الشوق ينغص عليه حياته فيعوضه بأشياء أخرى.. ما علينا).

.. لكن الرجل الذي اقتحمت عليه جلده لم يكن ليخجل من صدق الطفل الذي في أعماقه، كان ذلك جزءاً من صدقه الاستثنائي المضيء، لم يكن ليلبس الطفل قناع الصلابة الهشة، أو مسوح النضوج المزيف.

.. في عينيه بالقرب من تلك الشامة التي تشبه أثر شظية قديمة - وجدت دمعة مزمنة ملتصقة بأهدابه وبزمنه.. دمعة مزمنة تلتمع بشدة إذا خطر ذكر أمه، ولا يحتاج كثير جهد من ذكرها وذكراها لتنهمر الدموع من عينيه مدراراً..

(كنت تسرد لي أماكن أفراد عائلتك، بلدان متباعدة، وأخرى متقاربة - وكلها مرشحة لك نظرياً لكي تذهب إليها..

سألتك، وثبتُّ عيني بعينيك، قلتُ: «وأنت أين تريد..»

التمع شيء في عينيك عندما أبعدتهما عني، وقلت لي، بصوت كان سيختنق بعد قليل: «قرب أمي.. وأبي»).

وشيئاً فشيئاً تعرفت على تلك الدمعة المزمنة التي تسكن تحت أجفانك، تصادقنا معاً، أنا وهي، لم أحدثك يوماً عن ذلك، عن صداقتي بتلك الدمعة المزمنة الملتصقة بزمنك وبأهدابك، ولا أظنها حدثتك هي كذلك، لكننا طالما

تحدثنا عنك، نشأت بيننا علاقة وطيدة، وانتقلت لتسكن تحت أهدابي، والتصقت بزمني، وبكل أشيائي، بل ونزلت أحياناً - بصمت - على خدي، وسالت في أحيان أخرى مدراراً على وسادتي.

تلك الدمعة المزمنة، لم أخبرك يوماً عنها، لكنها أخبرتني عنك.. طالما حاورتني عنك، وحدثتني عنك وعن وحدتك وأحزانك.. معظم الأشياء التي عرفتها عنك عرفتها منها لا منك..

وأما وقد عرفت، فلم يكن ممكناً إلا أن أترك أنانيتي مكومة على المقعد هناك، وأتخلى عن حاجتي لأن يبقى الصديق الصدوق بقربي حتى لو كان يذبل بالتدريج..

واقتنعت أن لا فائدة، وأن القضية خاسرة خاسرة..

وأيقنت أن لا شيء في هذا العالم - لا الكلمات البليغة ولا الأسلوب الأدبي الجميل ولا قواعد المنطق الأرسطي ولا غير الأرسطي - ولا شيء على الإطلاق، يمكن أن يُقنع أو يساوم الطفل على حضن أمه..

.. لا مفر!.

* * *

لو نظرت إلى الأمر مليّاً، لوجدت ما يلي: فيما يتعلق بك يريد كل واحد منا أن تنفذ أنت ما يريحه هو شخصياً..

صديقنا د. حسين مثلاً، يريد منك أن تتزوج وتستقر وتترك فكرة السفر جانباً: إنه يحبك ويريد أن ينهي حياته وأنت صديقه، يزورك زيارات عائلية في الأعياد وتتبادلان الزيارات

العائلية بينما عدد أطفالكما يزداد عيداً بعد آخر..

بعض أقربائك يريد منك أن تبقى لأجل أن يواصل امتصاص دمك واستغلالك كالعلق..

وبعض منهم يريد منك أن تسافر شريطة أن تأخذ معك عروساً من بناته..

.. والبعض من أصدقائك يريد منك أن تسافر لأجل أن تمهد له طريق السفر هو الآخر.. عبر عقد عمل، أو عقد زواج.. الخ.

.. وبعضهم الآخر يريدك أن تبقى حتى يواصل تعذيبك؛ إنه لم يفعل شيئاً مهماً هو الآخر في حياته، أو إنه فعل أشياء لحياته ولكنها كلها سيئة. لذلك فهو حين يضجر يتذكر أنك هنا فيلتفت لك ليسألك: نصف ساخر نصف جاد نصف صادق نصف كاذب: ماذا ستفعل؟.. إنه يريدك أن تظل موجوداً ليمارس تمارين التنفيس النفسية بالرقص على جروحك..

.. وهناك؛ على الطرف الآخر من العالم، أهلك، إنهم يريدونك قربهم بالتأكيد، وبأي وسيلة. لكن التفاصيل ملقاة على عاتقك أنت.

.. وهناكِ أيضاً: أنا. إنني لا أمانع (!!) من سفرك ما دمت تريده، لكني أريد ذلك محاطاً بجملة من الشروط والعهود والمواثيق: أن يزيد التزامك، أن تذهب وأنت ملتزم أكثر وأكثر، وأن تظل ملتزماً هناك.

لماذا يا ترى؟ من أجل أن أطمئن أن مهمتي قد نجحت!..

يـا للأنانيـة..

.. إنه أمر لئيم من كل النواحي..

فقبـل كل هـؤلاء، وبعـد كل هـؤلاء، وأهـم مـن كل هـؤلاء، هنـاك أنـت، لـو سـألتك وطلبـت منـك أن تـرد فـوراً دون أن تفكـر أبـداً: مـاذا تريـد..؟

لأجبتـني عـلى الفـور، بينمـا تلـك الدمعـة المزمنـة تلتمـع بشـدة: **السفر..**

* * *

وكان يمكـن أن أظـل عـلى أنانيـتي، لـولا أني أراك وأنـت تذبـل أمـام عيـني كل يـوم..

* * *

.. ولمـاذا نعقـد الأمـر؟.. الشـباب كل يـوم تسـافر. وفي كل مـكان مـن هـذا العالـم هنـاك شـباب يتركـون أوطانهـم وعوائلهم وأصدقائهـم وذكرياتهـم ويهاجـرون.. فلمـاذا يكـون ذلـك طبيعيـاً جـداً بالنسـبة إليهـم ولا يكـون كذلـك بالنسـبة إليـك، وكل أفـراد عائلتك في الخارج وكل الذي تريده (لم شمل) حقيقي لا مزيف؟..

أنـا نفـسي يجب أن لا أجادل في الأمر، فـكل أصدقائي تقريبـاً دونما استثناء، مـروا بتلـك المرحلـة وانسـلوا مـن ثقـب مـا إلى الخـارج..

واليـوم، عندمـا أقلـب دفـتر هواتفـي الخـاص يهولـني الأمـر الـذي أعرفـه شـخصياً، لكـن، عندمـا أقلـب الدفـتر، أرى الواقـع وقـد تجسـم بشـكل حاسـم، ليـس هنـاك الآن أحـد عـلى الاطلاق

من كل الذين كنت أتصل بهم وأنا دون سن التاسعة عشر..، وعندما أقول، كنت أتصل بهم، فإني أقصد ذلك حرفيا، أي ليس الأصدقاء المقربين فحسب، ولكن كل الذين كانت بيني وبينهم محض اتصالات.. إن دفتر هواتفي اليوم هو عبارة عن أرقام لا ترد!!..

(وبعد أكثر قليلاً من عشر سنوات من تخرجي من الإعدادية، كان كل من أعرفهم ممن زاملوني هناك قد تركوا الوطن، بالضبط كنت أحمل تصوراً أن كل أولاد صفي قد هاجروا، وفي يوم ما، وبالصدفة، وفي معرض للكتاب العلمي، رأيت واحداً ممن كانوا في نفس صفي، لم يكن صديقي أبداً، لكني كنت أعرفه، أبديت له تعجبي من وجود شخص آخر من دفعتنا لا يزال لم يسافر بعدُ.. أما هو فقد كان عجبه أكثر، فقد كان قد سمع فعلا أني قد سافرت، ولما أكدت له أني لم أسافر إذ إني موجود أمامه، ذكر اسماً معيناً لدولة أجنبية كان الخبر قد نَسَب سفري إليها، وبدا عليه عدم الإقتناع متصوراً أني قد سافرت فعلاً، ثم حدثت لي مشكلة ما، وعدت!..)

..أستذكر وجوههم أحياناً، أولئك الأصدقاء والأحباء.. الذين كانوا يوماً ما يضيئون حياتي، أتمسك بها فإذا بها تظل شابة ونضرة في مخيلتي، سيكبرون، سأكبر أنا، ستغزو التجاعيد وجهي ووجوههم وستشتعل ذات يوم رؤوسنا شيباً، لكنهم سيظلون شباباً إلى الأبد في ملاعب الصبا المنصوبة في ذاكرتي.

قسم من هؤلاء أعرف يقينا (أن لا تلاقيا) بيني وبينهم، لقد ضاعوا تماماً في زحمة الحياة، حتى الإنترنت وشبكته الأخطبوطية التي تدخل كل بيت لن يجعل التلاقي ممكناً،



لقد استخدموا ببساطة أسماء أخرى غير التي كنت أعرفهم بها، صار اسم الجد لقباً أو اسماً ثانياً وألغي اسم الأب كما يحدث كثيراً في الغرب، وذابوا تماماً في غيابات الشبكة..

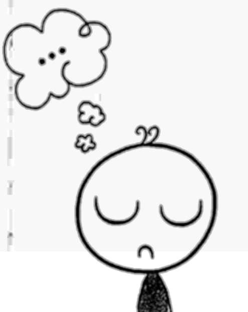
.. وقسم آخر، لم يضع تماماً كما هؤلاء، ولكن إمكانية ضياعه لا تزال قائمة، تبديل في مكان العمل وضياع لسجل العناوين المحفوظ في الحاسبة كفيل بذلك إلى الأبد..

.. وقسم آخر التواصل معهم قائم، تأتي هواتفهم في المناسبات والأعياد محملة بالشوق والحنين، وتأتي رسائلهم الإلكترونية مغردة بالحب والأخبار والتساؤلات، ونتبادل معهم ذلك، لكن ذلك كله إنما هو وفاء لشخص لم يعد موجوداً، إن كلّاً منا يمارس وفاءه وصداقته للشخص الذي تعرف عليه وصادقه يوم صادقه، لكن هذا الشخص - ببساطة - ليس هو ذاته الشخص الذي صرته أنا اليوم والذي صاروه هم اليوم، لقد تبدلنا، لكننا لا نزال نتبادل الرسائل والمودة والتهنئات التقليدية.. إننا أوفياء لأنفسنا أولاً، للأشخاص الذين كناهم ذات يوم بعيد، ولأصدقائنا وعلاقاتنا وذكرياتنا وقتها..

أستذكر وجوههم كلها أحياناً، بعض التفاصيل سقطت من الذاكرة، لكني أستذكر وجوههم وأتمسك بها وأنا أقلب أوراق ذاكرتي...

وفي داخل عيني أخفي دمعة مزمنة، تلتمع بشدة، كلما استذكرت وجوههم..

* * *



(لم أخبرك يوماً عنها. ولا أظنني أخبرت أحداً عن تلك الدمعة المزمنة الملتصقة تحت جفني..

والآن إذ أتحدث عنها، أشعر أني كمن يزيح الضمادات عن تشوه ولادي طالما حاولت إخفاءه..

إنها دمعة مختلفة عن تلك الملتصقة بزمنك، تحت جفنك، فوق جرحك على وسادتك..

إنها دمعة من نوع آخر، مؤلمة جداً، مثل جرح قديم ومزمن لا يلتئم أبداً، كلما مر وقت أكثر زاد القيح، وزاد الصديد..

إنها دمعة مختلفة، والمؤلم أكثر فيها أن البعض يعاملها كنكتة، وسيضحك كثيراً لو كشفت عنها، لذلك أفضل أن أخفيها تحت الضمادات كتشوه ولادي لم أستطع التأقلم معه..

كلما تذكرت وجوه أولئك الأحباء الأباعد، أو قلبت أوراق ذاكرتي، أو أوراق دفتر الهاتف الذي أرقامه لا ترد، كلما زارني واحد من أولئك الأباعد، الأقارب في الحلم، تلتمع في عيني، تحت جفني، تلك الدمعة الخفية التي لم أحدثك يوما عنها..).

* * *

ليس عن الفراق أتحدث..

رغم أنه حزين، لكنه مقدور عليه؛ إنه أمر طبيعي. منذ القدم والبشر يحترفون الفراق والافتراق والغربة والاغتراب والبكاء على ذلك كله..

إنه أمر شائع ومتداول جداً - صحيح أن ذلك لا يجعله أقل حزناً - لكن دمعة فراق الأحباب يقددها الزمن، لا أقول إنه يقتلها، لكنه يسكنها مكانها، تظل هناك، تحت الجفن في زاوية من زوايا القلب وركن من أركان الروح، قد تظهر أحياناً

بصوت مسموع، آهة أو تنهيدة تخرج من حشاشة الصدر بشكل لا إرادي، وقد تهبط أحياناً، دمعة ساخنة على الخد الجاف، في لحظة ضعف، أمام هياج الذاكرة وزلزلة الحنين..

وقد لا تهبط هذه الدمعة أبداً. تمر عليها سنوات القحط والجفاف، فيقددها الزمن، وتظل هناك، مثل هيكل عظمي لسمكة غدر بها المد وصار جزراً قبل أوانه فظلت عالقة في أشواك نبتة بحرية..

ليس عن دمعة الفراق. فالفراق، على ما يبدو، جزء من طبيعة الأشياء (أو على الأقل هكذا يبدو الأمر حيث أقف وأراقب)..

* * *

دمعتي الخفية التي لم أحدث أحداً عنها أكبر من ذلك. وأصدق من ذلك. وأعمق من ذلك.

رغم أنها تلتمع بشدة في عيني، وتؤلمني مثل قطعة من زجاج مكسور عالقة فيها، كلما تذكرت وجوههم، أو كلما زارني واحد منهم في الحلم - إلا أن دمعتي المزمنة خالية من الشيء الشخصي.

إنها دمعة مختلفة، أخفيها بإتقان، حتى لا يعتبرها أحد نكتة سخيفة..

.. وهو أمر مؤلم جداً، مثل قطعة زجاج مكسور عالقة في عينك..

.. لقد كانوا الأفضل في جيلي، أولئك الذين انسلوا من ثقب ما، وتسللوا إلى الخارج.

وعندما أقول إنهم الأفضل، فإني أعني ما أقول، لا شيء

شـخصي في الموضـوع.. إنهـم الأفضـل (مـن الناحيـة العلميـة علـى الأقـل)..

وفي المراكـز العـشرة الأولى عـلى القطـر، كان هنـاك حـوالي ثمانيـة عـشر طالبـاً مـن دفعـتي، ثلاثـة منهـم عـلى الأقـل - كانـوا مـن الأصدقـاء المقربـين..

لقـد كانـوا الأفضـل. وكان مـن المفـترض أن يبقـوا هنـا.. وتعلـو أسماؤهم هنـا، عـلى اللافتـات وعـلى الألسنة وفي أدعيـة المـرضى وأمهاتهـم الـتي ستصعد إلى السـماء..

أتابـع أخبارهـم فتلتمـع الدمعـة تحـت جفـني بشـدة، بعضهـم يسـير بتعـثر، وبعضهـم الآخـر يسـير بخطـوات أسرع.. لكـني أثـق تمامـاً أنهـم كلهـم سـينجحون (إلا إذا حوربـوا لأنهـم مسـلمون)..

لقـد كانـوا الأفضـل، ولكـن - ويـا للأسـف - **كان مـن المفـترض أن يجعلـوا وطنهـم أفضـل..**

أعرفتَ لماذا أخفي دمعتي تحت الضمادات؟

لأن فرضية كهذه لم تعد واردة على الإطلاق.

لأن كلمة وطن صارت مثل نكتة.

ولأننا وصلنا إلى هذه المرحلة.

* * *

(مـرة خيـل إلي أني رأيـت أحدهـم. كنـت أقـف في ممـر أنجـز معاملـة روتينيـة جـداً تسـير بسرعـة سـلحفاة كسـولة ومصابـة بالكسـاح، وكانـت الكهربـاء منقطعـة، والممـر يقـع في زاويـة شـبه

معتمة، ومن بعيد دخل أحدهم وكان ضوء الشمس خلفه.. وخيل إلي أني رأيته، واحد من أولئك الذين ذهبوا..

.. لقد شبه إلي، ولثوان خيل لي أنه هو، لو طالت أكثر لهرعت إليه مهللاً..

كان طويلاً جداً، نحيلاً جداً، أسمر جداً..

.. وكان له اسم مثل اسمك.

لا أزال أذكر أنه جاء إلينا منقولاً من مدرسة أخرى، وكعادة كل الجدد ظل منعزلاً على نفسه، وفي أول درس، أذكر جيداً أنه كان مادة الأحياء، طُرح سؤال خارجي، فقام هذا الجديد الطويل ليغرد، ونظر إليه المتفوقون الأوائل شزراً، لم يحسبوا حساب منافسة جديدة لتلك السنة.

مع الوقت، صار واحداً من أقرب المقربين...

وظل متفوقاً جداً.

وعندما تخرج من الكلية الطبية - وكان من الأوائل فيها كذلك - لم ينتظر حتى يحصل على شهادته رسمياً. لقد سافر خلال أقل من أسبوع بعد تخرجه،لم أكد أتمكن من تهنئته.

وبعد ذلك بسنوات، توفي والده، وبصعوبة استطعت أن أحصل على رقم هاتفه لأعزيه، وكالعادة هناك، أجابتني تلك الآلة الغبية المسماة بـ (الأنسرماشين)..، تركت له عزائي ومواساتي وأخبرته أني سأتصل به ثانية.

وبعدما أغلقت الخط، تذكرت أني لم أترك اسمي.. وفكرت

بهلع: **هل يا ترى سيحزر من أكون؟ هل سيذكر صوتي؟، حتى ولو ليس فوراً!**

.. أم أن تفاصيلا كهذه تسقط مع الوقت ولا تعود لها لازمة.

وتذكرت كيف أنهم أعادوا ترتيب الأسماء أبجدياً ذات مرة في بداية السنة النهائية، ونقل هو إلى صف آخر - ما دام اسمه يشبه اسمك! - وكان ذلك وقته أمراً محزناً جداً تحدثنا عنه وقتها بمرارة - رغم أننا لم نفترق أكثر من أمتار..

.. ولم أحتمل مجرد التفكير أنه لن يحزر من أكون، فقررت ألاّ أعطي له الوقت للتفكير والتمعن والحيرة. واتصلت ثانية وتركت رسالة أخرى على تلك الآلة (التي لا بد أنني بدوت غبيا جداً أمامها..)..

أقول لك: وذات مرة - هناك في الممر شبه المظلم، خيل لي- لثوانٍ معدودات، أني رأيته.

وكنت سأبدو غبيا جداً لذلك الشبيه لو أني هرولت إليه وأخذته في الأحضان..

بعدما انتهت تلك الثواني، خرجت من ذلك الممر وأدخلتني أفكاري إلى نفق أشد ظلمة.. لم يكن يدل على وجود ضوء في نهايته..)

فكرت، بتلك التساؤلات التي صارت رغم بداهتها، غير مطروقة..

فكرت، هل كان ما حدث يمكن ألاّ يحدث؟

لا أقصد القدر، أقصد لحظة معينة من الزمن، منعطفاً مررنا به، وولجنا هذا الممر المظلم الذي يتخيل فيه الناس أنهم يرون أحبابهم.. ويشبَّه لهم.. ثم يكتشفون بعد ثوانٍ أن ذلك مستحيل..

أقصد هل كان من الممكن ألاَّ يحدث ذلك الشيء الذي حدث، فنمر بالممر بأصحاب قدامى لنا، نراهم ونرحب بهم، ونسترجع معهم ذكرياتنا، ونتواعد على التلاقي، ثم نخلف الميعاد، أي كما هو الطبيعي..

هل كان يمكن أن يبقى هؤلاء الأفضل هنا؟ يكملون تعليمهم ثم يسافرون للخارج للمزيد من الإكمال، فيعودون ويتزوجون هنا، تخطب لهم أمهاتهم أو يختارون هم. ينجبون الأطفال فتقر بهم عيون جداتهم، وعندما يموت آباؤهم يكونون بقربهم، ويحملون توابيتهم، ويدفنونهم، ويقفون في مجالس عزائهم..

.. هل كان من الممكن أن تكون الأمور طبيعية، وتمضي الحياة كما كانت من قبل، قبل عشرين عاماً مثلاً؟

لا أقصد القدر، أقصد مفترقات الطرق، أقصد الثقوب في جدار الزمن، أقصد الاختراقات التي كان يمكن أن تحدث.

هل كان يمكن أن تحدث؟

أعود أدراجي، مفترق الطرق بعيد ووعر، من النفق المظلم أعود لممر مظلم بسبب انقطاع الكهرباء، لكن فيه القليل من الضوء..

- في لحظة ما - لا أشك أنك عرفتها - صعبة ومرهقة، حادة ومدببة، خارقة وحارقة، ولجنا ذاك النفق..

- في لحظة ما - لا شك أنك عرفتها - حدثت قطيعتنا مع ذلك الماضي، الذي كان طبيعياً.. لحظةٌ فاصلة - فصلتنا بالمعنى الحرفي - عن ذلك الوضع المستقر الذي يجعل الناس - حتى لو سافروا - يعودون، ويستقرون.. ويستمرون.

في لحظة ما - أتساءل هل كان يمكن ألاَّ تحدث - حصل ذلك كله..

تصدرت تلك اللحظة عناوين الأنباء آنذاك، وظلت كذلك لفترة طويلة، لكنها لم تبق نائية هناك، بل دخلت تفاصيل حياتنا، فرقتنا، مزقتنا، سفرتنا وباعدت بين أسفارنا.. غربتنا ثم أمعنت في تغريبنا..

لحظة ما، افتتحت سنوات الحصار المرة، بدأت سياسية أول الأمر، وبدت كما لو أنها لا تخص أحداً بعينه..

لكن انظر كيف انتهت: لقد دخلت في حياة كل منا، إنها علاقة الفرد بالجماعة، مرة ثانية، لا نجاة فردية هناك ولا خلاص فردياً أبداً..

وانظر مرة أخرى، لو كنت تستطيع النظر، كيف أثرت هذه اللحظة على كل تفصيل من تفاصيل حياتك، وها أنت ذا، تقرؤني وحيداً في المنزل، وقد هجره جميع أفراد عائلتك .. ولولاها... من يدري؟.

لا مفر مما لا مفر منه: انظر، بل اسمع هذه المرة، لقد وصلت هذه اللحظة إلى أن أسقطت حرف الحاء الحبيب من

لسان ابنة اختك التي كبرت في الغربة.

اليوم حرف الحاء. وغدا حرف القاف.

وبعدها حرف الضاد. الضاد. الضاد..

وبعد الضاد، هل يبقى شيء يا صديق؟..

* * *

.. وأيضاً ابنة أختي.

* * *

قبل تلك اللحظة، بسنين عديدة، حتى لا أقول عشرات السنين، بدأ الأمر..

شيئاً فشيئاً، نسجت تلك اللحظة فخها..

بصمت العنكبوت، ومكر الثعلب، وبطء السلحفاة، ومثابرة النملة، وتلون الحرباء، وغدر الذئب، بسم الأفعى، وأنياب الأسد..

مرة كانت الخطة عالية مدوية واضحة: حروب وكوارث وانفجارات وصواريخ.

ومرة كانت سرية وخفية: تحرر وتحضر وبريق لامع بشدة.

وشيئاً فشيئاً حفر الفخ إلى أن سقطنا فيه.

لا تصدق أبداً أن الهدف كان تغيير الخرائط، **كان الهدف تغييرك أنت..**

لا تصدق أبداً أنها بضعة كيلومترات هنا وأخرى هناك.. كل ما يستهدفونه كان بضعة سنتمترات، في دماغك أنت..

حتى النفط لم يكن هدفهم النهائي، لكن ذلك السائل الخام الآخر الذي يجري في عروقك، والذي كان من الممكن أن يغير العالم..

لا تصدق ظواهر الأخبار. لم يهتموا قط بتغيير نظام هنا أو تثبيت آخر هناك. كانوا يريدون - دوماً - نظام حياتك..

لا تصدق أنهم كانوا يريدون رأس النظام - ذلك أمر جد سهل..

لقد كانوا **يريدون رأسك أنت..**

.. ولم يكونوا يحاولون اغتيال فلان أو علاّن من المشاهير. إنما كان قناصهم دوماً مصوباً سلاحه نحوك، كانت الفرضة تلتحم بالشعيرة والاثنان معاً يلتحمان برأسك.

في وسط السدادة، كنت أنت دوماً هناك. ولم يكونوا يريدونك حياً أو ميتاً، إنما كانوا **يريدونك حياً ولكن بقيم ميتة.**

.. ولم يكونوا يريدون تقسيم البلدان وتفكيكها حقاً، إنما كانوا يريدون أن يقسمونك أنت، كانوا يريدون تقطيع أوصالك..

.. ولم يهمهم فعلا أن تخضع لهم الحدود وتفتح أبوابها وتتمزق، إنما كانوا يريدون منك ألاّ تخضع لحدود الله، وأن تسقط من عينك مهابتها، وأن تتمزق على واقعك وأرضك..

.. كل ذاك القصف استهدفك أنت ذاتك، كانت الصواريخ

تدك المنشآت العسكرية، لكن عيونهم كانت على ما نشأت عليه، كانت الطائرات تحوم وتغير، وترمي بالقذائف والقنابل والصواريخ، لكن **هدف كل الغارات كان تغييرك أنت..**

لم يكونوا يريدون البنية التحتية حقاً، كانوا يريدون بنيتك أنت..

من كل خططهم واستراتيجيتهم أنت كنت الهدف والمركز، **يتغير التكتيك، لكن الاستراتيجية بقيت دوماً ثابتة.. مصوبة نحوك.. ونحوي، ونحو تلك الأسماء المسجلة في دفتر هاتفي ذي الأرقام التي لا ترد..**

* * *

كانوا يريدون أن يموت الآباء وحدهم وبينهم وبين أبنائهم آلاف الكيلومترات والحواجز والصعوبات.. فيدفنهم أصحاب الواجب من أقارب وأصحاب وجيران: يحملون التابوت بلا دموع. ويهيلون التراب بلا تأثر، ويقفون في العزاء بتأفف، إنهم يؤدون الواجب، وكثر الله من أمثالهم..

وفي لحظة من اللحظات، ربما في الاحتضار وربما عند الدفن، سيطوف في بال الجميع تقريباً فكرة أن الآباء لم ينجبوا أبناءهم إلا من أجل أن يكونوا هناك عند الموت وعند الدفن.. ليؤدي أحدهم ما يؤديه بعاطفة حقيقية ودونما حس الواجب.

.. وحتى هذا لم **يحدث.**

لا، ليس العقوق، ولا الظروف، ولا الغربة التي تغير أولاد



آدم..

لقد كان ذلك كله هدفاً استراتيجياً..

* * *

.. بين السطور، وراء الأخبار، خلف التحليلات والتعليقات، خارج لغة البيانات الختامية التي تتمخض عن المؤتمرات..

كنت أنت وأنا وأصدقائي وأصدقاؤك دوماً هناك.

كنت دوماً البند الأول - غير المعلن - في كل البيانات..

* * *

.. ولقد كانوا يريدون دوما أن يحزم الأفضل حقائبهم ويرحلوا إلى هناك..

وإذا بقوا هنا، فعقولهم ستكون هناك، وبوصلة أهدافهم ستشير إلى هناك، وأحلامهم هناك، وأقصى طموحاتهم ستكون هناك. وبين الحين والآخر، سيغامر قسم منهم بإفلات كل شيء هنا، من أجل شيء غير مؤكد هناك..

.. وبين الحين والآخر، **سيقامر البعض منهم بحياته (حرفياً) من أجل أن يحصل على ورقة أو أخرى: تأشيرة دخول لتلك الدولة أو إقامة في دولة أخرى..**

.. وكل ذلك بتفاصيله كان مكتوباً في اللوح غير المحفوظ الذي دونوا فيه مؤامراتهم..

.. وكانـوا يريـدون منـا أن نصـل إلى تلـك المرحلـة، الـتي تصـير فيهـا كلمـة (وطـن) كلمـة مضحكـة قـد نضطـر إلى تحاشـيها ومحاولـة تغطيتهـا بعبـارات أخـرى..

وكانـوا يريـدون منـا أن تصـير صفة الـ (وطني) مرادفـة لواحد من اثنـين: إمـا المنافـق مفضـوح النفـاق، أو المغفـل شـديد الغبـاء..

.. وكانـوا يريـدون منـا، أن يصـير الحديـث عـن البقـاء في الوطـن مثـل موعظـة غبيـة وممجوجـة لا يؤمـن بهـا أحـد، ولا يطبقهـا إلا الكسـالى والعجـزة..

.. لقـد كانـوا يريـدون رأسـك يـا صديـق. رأسـك ومـا فيـه. رأسـك فحسـب. كل البـاقي كان مجـرد تفاصيـل في درب الوصـول إلى رأسـك..

ولم يحيدوا عن هدفهم قط..

* * *

.. وكانوا يستهدفون إزالة حرف الحاء من لسان ابنة اختك..

وأيضاً ابنة اختي..

* * *

وأيضاً إزالة أشياء أخرى..

* * *

أخشى أن أقول إنهم - إلى الآن - قد نجحوا فيما استهدفوه..

* * *

لا مفر مما لا مفر منه..

والمؤامرة هنا ليست نظرية، ليست افتراضاً وليست وجهة نظر..

إنها الواقع المحبوك الذي نعيشه والذي يحاصرنا من كل الجهات، إنه - ربما - اليقين المادي الوحيد الذي نستطيع أن نقطع به، في عالم مليء بالافتراضات والاحتمالات والمتغيرات.

ليست نظرية.

إنها الحقيقة القاطعة مثل حد سكين يخترق رقبتك..

إنها الواقع الشاخص أمامنا الذي لا يمكن أن تدعي أنه محض (ديكور) سينمائي..

إنها شيء يعيش معنا، هو الذي يحاصرنا حقاً ولا شيء غيره، يسكن أفكارنا، ويباعد بين أسفارنا، ويمزق أحلامنا، ويجعل الأرقام لا ترد في دفاتر هواتفنا وبعدها: يزيل الحاء من ألسنة بنات أخواتنا..

.. إنها الواقع الذي يبتلعنا مثل أخطبوط هائل الحجم لا متناهي الأذرع، وهي في الوقت نفسه، عالقة في حناجرنا - مثل شفرة حادة لا نجرؤ على ابتلاعها، ولا نحن قادرون على إخراجها.

إنها المؤامرة المحبوكة المخطط لها...

فلا يقل أحد: إنها (نظرية مؤامرة).

* * *

في مؤتمر ما، في قاعة ما، في فندق فخم ما، أو قبو سري ما - ربما محض غرفة في شقة عادية، أو بيت ريفي منعزل بعيد عن العيون.

ربما مجرد مكالمات هاتفية مشفرة، أو رسائل مكتوبة بحبر سري.. ربما لقاء يبدو في ظاهره عادياً جداً..

لعلك تتصورهم من المشاهير الذي ستتعرف على وجوههم لو رأيتها؟.

أبداً.. إنهم لم يظهروا قط على المسرح، ولم توجه بقعة الضوء عليهم، لكنهم كانوا دوماً هناك، خلف الكواليس، يحركون الخيوط، يعطون التوجيهات، يرتبون (السيناريوهات)، يضعون اللمسات الأخيرة.

.. وكان أيضاً هناك: رأس المال القذر، تارة يظهر كحاجة ماسة إلى ثروات مختبئة في هذه البقعة أو تلك.. وأخرى يظهر كحاجة إلى عقد صفقات أسلحة تغذي طاحونة الحرب عندنا وتدير عجلة الاقتصاد عندهم..

.. وكان هناك - لا بد - في عمق القبو، ما لا يكمل مشهد كهذا إلا به؛ كان هناك ذلك الشمعدان اليهودي الشهير.. وشمعاته السبعة التي هي جوهر الظلام..

إنها الشمعات، التي يلعنها.. حتى الظلام..

.. وكانوا يترصدونك يا صديق..

لقد كانوا يريدون رأسك..

.. وشيئاً فشيئاً نصب الفخ..

وشيئاً فشيئاً، سقطنا فيه..

أنت وأنا، صديقي وصديقك، ابنة أختك.. وابنة أختي..

وكان أكثر ما هو مؤلم وخطير في المسألة، أننا شاركنا في حفر الفخ بأنفسنا - بحماس منقطع النظير..

* * *

سوف تقول، متأففا من عادتي في توجيه الاتهامات، أنني أبالغ كعادتي.. وقد تأخذ الأمر بشكل شخصي كالعادة.. وتحاسبني فيما بعدُ عليه.

أقول لك: لا مفر مما لا مفر منه.

لن أتهرب.

خذ كلامي بحذافيره. بظاهره وباطنه. بأوله وآخره، وإذا عاتبتني واعتذرت لك، فأمسك بي من رقبتي، واخنقني..

لا مفر مما لا مفر منه.

نعم. لقد شاركت أنت في حفر الفخ الذي أوصلك وأوصلنا إلى ما نحن فيه..

أنت ذاتك... وأنا ذاتي... وكلنا ذاتنا...

لا مفر من مواجهة هذه الحقيقة: ازعل إن شئت. واغضب إن شئت، لكن أكمل، سواء أعجبك ذلك، أم لم يعجبك..

* * *

تذكر مرة، غضبت منك لسبب تافه بحيث أني لم أعد أذكره، أظنها كانت مخالفة شرعية بسيطة أثارتني أكثر مما يجب، يومها قلت لك، وأتخيل أني قد تقمصت كل عناد ابني - ابن الخمس سنوات - عندما قلت لك مهدداً: لو كررتها فإنك لن ترى وجهي ثانية..

.. يومها أغرقت أنت في ضحك استفزني، وكان في عينيك تلك النظرة التي تجمع كل خبث وبراءة أطفال الروضة من أصدقاء ابني في آن واحد، قلت لي من تحت عينيك: «لن تفعلها»!..

ولم أفعلها!.

في اليوم التالي، غادرني عناد الصغار وسكنتني حكمتهم الخارقة التي تأتيهم في بعض الأحيان وتترك أفواه الكبار مشدوهة، قلت لك بهدوء من بين أسناني: «مهما يكن من إخلاصي والتزامي بالبقاء معك، لكن التزامي بالحقيقة سيظل أكبر».

هززت رأسك أنت، وقلت: «بالتأكيد»..

اليوم أكرر ما قلته في تلك الأمسية: انتمائي للحقيقة سيظل أكبر من أي شيء آخر.

ورغم أني أحياناً أجاملك، إلا أن ولائي للحقيقة سيظل هو الأصل..

لذلك أقول لك الحقيقة: نعم، أنت مسؤول..

لا تغضب مني، ولا ترم بالأوراق جانباً..

أنت مسؤول، وأنا مسؤول، وكلنا يتحمل جزءاً من المسؤولية، كل بقدر ذنبه..

.. وهذا النفق المظلم لم يجرونا إليه جراً، لقد ركضنا إليه في بعض الأحيان.. وشاركنا في حفره وبنائه في أحيان أخرى.. وفي جر الآخرين إلى غياباته في معظم الأوقات..

* * *

في تلك الجنازة.. كنا المعزين، وكنا الموتى في الوقت ذاته. كنا في التابوت مسجين، وكنا هناك في صدر المجلس نتلقى العزاء..

عند حافة المقصلة، كانت رقابنا ممدودة، وكانت أيدينا هي التي وضعتها هناك.

كنا القتلى، وكنا القاتلين.. كنا الجلاد، وكنا الضحايا في الوقت نفسه. لقد كنا - على أقل تقدير - شركاء أساسيين في تلك الجريمة التي أودت بنا..

تلك السفينة الغارقة الغارقة التي تحاول جاهداً الهروب منها، والتي هرب منها أصدقائي أصحاب الأرقام التي لا ترد، وهرب منها مئات الألوف من غيرهم. من ضمنهم أختي.. ومن ضمنهم أختك..

تلك السفينة الغارقة، والتي نرى بأعيننا الماء يتسرب إليها كل لحظة، والتي تهبط كل لحظة أكثر وأكثر إلى القعر، والتي نتراكض نحن في أروقتها بحثاً عن مكان أعلى نتوهم أنه سيعصمنا من الماء، أو نحاول أن نفرغها من الماء المتسرب إليها عبر (جردل) هنا أو كوب هناك..

تلك السفينة المخروقة ألف خرق، الغارقة لا محالة، والتي يحرص الجميع - على ما أرى - على الفرار منها بشكل أو بآخر.. كل منهم كان قد أغرقها بطريقة أو بأخرى..

كل منهم كان قد أحدث خرقاً، أو ثقباً، صحيح أن بعضهم أحدث ثقوباً صغيرة.. لكن الماء كان يتسرب منها أيضاً (وعدة ثقوب صغيرة، كانت كتحصيل حاصل تجمع، وتصير بمثابة خرق كبير)..

لكن الماء لا يفرق بين أحد..

(.. لا عاصم اليوم من أمر الله..).

* * *

بصراحة..

لست في مزاج لأذكرك بالثقوب التي أحدثتها أيام الضلالة..

تذكـر طبعـا أن ذلـك كان دأبي ولفـترة طويلـة، وبأسـاليب مختلفـة..

وكان هـدفي في ذلـك معلنـاً وواضحـاً: كنـت أريـد أن تكـون توبتـك حقيقيـة، لا محـض امتنـاع، كنـت أريـد لذلـك المـاضي أن يمحـى بالتوبـة، لا بالتقـادم والانقطـاع.

لـم أكـن اريـد لـه أن يكـون ماضيـاً «فـات ومـات» بمـرض مـن أمـراض الشـيخوخة أو بذبحـة صدرية مزمنة. كنـت أريدك أن تقتله بيديـك، كنـت أريـد أن تذبحـه (بِنَدَمـك) مـن الوريـد إلى الوريـد..

كنـت أفكـر: عندمـا تكـون الجثة سـليمة، لا فـرق كبيراً بـين النوم والمـوت، فجـأة قـد يحـدث شيء مـا ويعـود المـاضي للحيـاة..

لذلـك كنـت أريـدك أن تمثـل بذلـك المـاضي في أعماقـك.. كنـت أريـد - بشـتى الوسـائل - وربمـا بأدناهـا أن تكـون توبتـك حقيقيـة، لا بمعـنى الامتنـاع فقـط، ولا بمعـنى أنهـا صفحـة وطويـت، وتجربـة وانقضـت، ولكـن بمعـنى أنهـا القطيعـة مـع مـا صرت تكـره أن تعـود فيـه بالضبـط كمـا تكـره أن ترمـى في النـار..

.. مـع نفسـك اللوامـة عقـدت حلفـاً ضـد نفسـك الأمـارة

بالسوء، أملاً في الوصول إلى تلك المطمئنة..

اليوم، ورغم أن الفرصة مناسبة لنصب سرادق المناحة والندب على ذلك الماضي، ألغي كل تحالفاتي السابقة، وأعقد حلفا مع صدقي وحده، لأقول لك: لست في مزاج لأذكرك بالثقوب التي أحدثتها في السفينة..

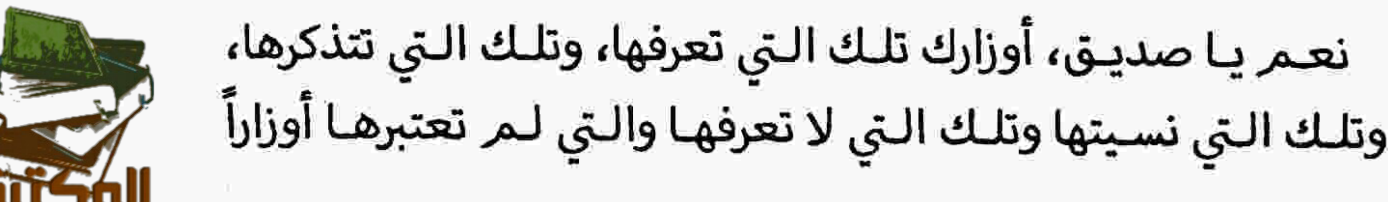
كان ماضياً وقد تبت وندمت **وانتهينا..**

.. لكن رغم ذلك، ورغم أني أعرف أن تلك الكبائر والمعاصي قد بدلها الله حسنات في ميزان أعمالك - (وأنا جد سعيد لك من أجل ذلك) إلا أن حقيقة أنها وقتها عملت على إغراق السفينة لا يمكن أن تغيب عن بالي.

ربما نجوت بنفسك عندما قفزت وتبت، ولكن آثارها على السفينة ظلت هنا وهناك، وآثارها على الآخرين ظلت عليهم، وعلى آخرين من بعدهم..

.. نعم، لقد بدلها الله إلى حسنات، لكن ذلك في اليوم الآخر..

أما في اليوم الحالي - فقد بقيت موجودة، كل وزر يجر وزراً، وكل آخر يرتبط بآخر، وفي النهاية تأتي سلسلة الأوزار المتشابكة والمتلاحقة والمترابطة، تأتي تلك السلسلة وهي تشد السفينة الغارقة التي نتراكض في أروقتها هرباً من الماء المتسرب من كل مكان..


نعم يا صديق، أوزارك تلك التي تعرفها، وتلك التي تتذكرها، وتلك التي نسيتها وتلك التي لا تعرفها والتي لم تعتبرها أوزاراً



- كلها اجتمعت معاً، ومع غيرها، (ربما اصطفت بالضبط قرب أوزاري) وكونت سلسلة من الأوزار تشد السفينة إلى القعر..

.. رغم أنها كانت مؤامرة، لكن، كما ترى، لقد شاركنا في العمل بحماس منقطع النظير.

* * *

ولم يكن واحد منا يتصور هذه النهاية، بين استسهال الخطايا واستصغار الكبائر، بين الغفلة والاستغفال، والعادي والطبيعي، وأصدقاء السوء، والبيئة التي تجر جراً..

ورويداً رويداً، سارت الامور، لم يتصور واحد منا أن ما فعله سيحاصره في الدنيا قبل الآخرة.

نفاق هنا، زنى هناك، خمر هنا ورشوة هناك. عقوق هنا وجحود هناك..

وانظر أين انتهى بنا الأمر؟.. ها هي السفينة تغرق.

.. وها هو حرف الحاء قد سقط من لسان ابنة أختك.. (وأيضاً ابنة أختي).

* * *

قطع من (الدومينو) المرصوصة واحداً بعد الآخرى.. منتظمة في سلاسل متداخلة ومتشابكة، كل سلسلة تبدأ بقطعة (دومينو) مختلفة، وترص خلفهما قطع أخر منتظمة، وتشكل بمجموعها شكلاً هندسياً، لو ركزت فيه قليلاً، لرأيت أنه يشبه شكل تلك السفينة الغارقة التي تقلنا..

قطع (الدومينو) تلك، الواحدة عندما تسقط ترتطم بالتي تليها، فتسقط، وتُسقط التي تليها، ثم التي تليها.. وتجر السلسلة كلها بالتدريج.. بالتدريج..

وشيئاً فشيئاً، بدأت تغرق السفينة..

قطع (الدومينو) تلك، نحن أسقطناها بتلك الكبائر والمعاصي، ما انتبهنا إلى أن ما فعلناه لم يكن لينتهي عند قطعة واحدة، ولكن كان يستمر ويجر قطعة بعد أخرى.. بعد أخرى.. بعد أخرى..

دوماً كنا نتصور ذنوبنا فردية ولا تخص أحداً غيرنا **(أنا حر ولا أحد له شأن بما أفعله)**.. دوماً كنا نتصور قطعة الدومينو التي نرفسها لا تؤذي أحداً..

(أنا لا أؤذي أحداً بما أفعله، وغيري يفعل أكثر بكثير..).

.. وانظر كيف أن قطع (الدومينو) تلك جرت الهيكل كله، وخر السقف.. وانهار البيت فوق رؤوسنا..

كل ذلك - رغم المؤامرة - فعلناه بأيدينا..

غفر الله لك، وليته يغفر لنا..

* * *

منذ أن صار نادراً أن ترى شاباً يصلي، وإذا حدث ذلك فإن أصدقائه سيضحكون عليه، منذ أن صار الأهل يخافون على ابنهم إذا صلى، وصار الأمر - في بعض الأحيان - يتطلب تحقيقاً رسمياً واستدعاء للشهود واستجوابهم: كم مرة يصلي فلان.

منذ أن نزعت أمهاتنا حجابهن، وارتدت أخواتنا البناطيل الضيقة،

وصارت العلاقة المحرمة بين الذكور والإناث صداقة عادية..

منذ أن صار الزنى أنساً وترويحاً عن النفس، ودنست الروح إلى أن صارت الخمر تسمى مشروباً روحياً..

منذ نسيناه، وتركناه وخفنا من كل شيء إلاه..

منذ أن اختلطت أوراقنا، وصار أعدى أعدائنا ذاك الذي كان سبب خروجنا من الجنة - هو أصدق أصدقائنا..

منذ أن خدعونا بأسماء شتى، تارة الحرية والتحرر، تارة الحضارة والتحضر، وتارة أخرى المدنية والتمدن..

منذ أن كان كل ذلك، وكان أفضل من فينا محض ساكت عن الحق، محض شيطان أخرس..

منذ أن كان كل ذلك، كان يجب أن يحصل ما حصل بعدها - كان يجب أن يكون ما هو كائن الآن، كان يجب أن نصل إلى ما وصلنا اليه.. كان ذلك حتماً مقضياً، حتماً ولّدته تلك الكبائر والمعاصي في الأيام الخوالي..

كان الأمر مسألة وقت، منذ أن سقطت قطعة (الدومينو) الأولى؛ أن تجر التي تليها، ثم التي تليها، إلى أن ينهار البناء كله.. مهما طال الوقت.. مهما طال الوقت..

أترى؟ رغم أنها كانت مؤامرة محكمة، إلا أننا كنا شركاء في الجريمة.

مغفلون طبعاً، لكننا عملنا في ذلك بحماس منقطع النظير.

* * *

وستقول لي، إن لم تكن قد قلت فعلاً.. وهل كنا وحدنا في تلك الكبائر والمعاصي؟ ألم تكن البلدان المجاورة - ولا تزال - فيها معاصٍ، لا أقول أكثر ولا أقول أقل، ولكن فيها، مثلها مثلنا..

أقول لك: الحق الذي قاله الحق: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أجل فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً) [الأعراف: 7/34]

نعم، يبدأ السقوط بقطعة (دومينو) واحدة، ولكن يأخذ الانهيار الكامل وقته، فإذا جاء أجله لن يتأخر ساعة واحدة..

فلا تستعجل عليهم.. (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أصحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ) [الذريات: 51/59]

الأمر يأخذ وقتاً، أحياناً عقوداً، إلى أن يتبين الانهيار الكامل والذي يأخذ في كل مرة شكلاً مختلفاً، مرة أزمات اقتصادية خانقة، ومرة حروباً مدمرة، ومرة كوارث بيئية..

فلا تستعجل العذاب على أحد، واحمده عز وجل على حسن حظنا أن عشنا في هذه الفترة التي تبين لنا فيها الانهيار الكامل، واستفقنا.. لعل ذلك يجعلنا ننجو، لعل ذلك يجعلنا نكفر عن حصتنا من قطع (الدومينو) المنهارة..

* * *

وما دام الأمر كذلك - وما دمت أؤكده، فهل هناك فائدة فيما أقوله بمناسبة سفرك..

أعتقد أنني أبدو هنا مثل من يلقي موعظة سخيفة على ركاب السفينة والماء يتدفق من كل مكان، وهو يتفلسف ويلومهم:

ألم أقل لكم؟ ألم أخبركم؟ ألا ترون أنكم تتلقون شر أعمالكم؟.. ألم تخرقوا السفينة؟ هذه هي نتيجة أعمالكم..

ثم إنه ينظر إلى البحر، فيقرر أنه هائج، وأن قوارب النجاة لن تصمد فيه، فيلقي لهم بموعظة أخرى عن ذلك، وفي الحقيقة أن مع قوارب النجاة ربما هناك ثمة أمل، أما السفينة، فهي غارقة لا محالة، ومع ذلك فهو يستمر في إلقاء الموعظة..

يبدو ذلك سخيفاً جداً، وما دامت القضية خاسرة، فإني لن أفعل ذلك..

* * *

بصراحة، عندما يتدافع الناس للهرب من حتفهم في السفينة الغارقة، فإن المواعظ لا تجدي ولا تفيد..

لا تستطيع أن تعظ بالبقاء في السفينة وإصلاحها، بحجة المسؤولية الجماعية في إغراقها، أو بحجة أن البحر هائج وقوارب النجاة غير مؤهلة للصمود فيه..

.. لن يكون ذلك طبيعياً أبداً.

الطبيعي أن يكون رد فعل هؤلاء المتدافعين المبتلين بواعظهم المتفلسف، أن يمسكوا به، ويحملوه، ويرموه في البحر..

لذلك سأصمت..

خاسرة خاسرة يا صديق.

وبصراحة أكثر..

لا أعتقد أن هناك - ولا حتى شخص واحد - من جيلي لم يفكر - على الأقل مرة واحدة - في الهرب من السفينة الغارقة.

حتى الواعظ المتفلسف، لا أشك ولا لحظة واحدة - أنه فكر أيضاً في التدافع مع الناس من أجل أن يحظى بمكان له في قارب نجاة..

(عندما تدق وتداً في خيمة الاستقرار، لابدَّ أن ينتابك بعض التساؤل حول صحة أو خطأ المكان الذي اخترت فيه خيمتك..

.. وعندما شرعت في تأسيسي لعملي الخاص، كانت دوماً تساورني تلك الشكوك والتساؤلات.. ورغم أن السفر لم يكن في بالي، إلا أن تأسيس العمل الخاص كان يعني أني أدق وتداً للاستقرار، وأني على هذا الوتد سأؤسس نهائياً لحياة لا فكرة للسفر فيها.. وتد يعني ضمن ما يعنيه أني قد اخترت بشكل نهائي المكان الذي أعيش فيه، وربما أموت أيضاً، طبعاً قرار كهذا قد يتعرض فيما بعد لظروف كثيرة، وبعض الناس يؤسسون لعمل خاص وبعد فترة يصفونه ويتركون، لكن، ولو مؤقتاً.. اختيار كهذا - أعترف - قد لا يكون نهائياً، لكنه بالتأكيد قرار مبدئي..).

* * *

(.. وفي يوم الافتتاح، في صبيحته تحديداً، وقفت على ذلك الرصيف الوسطي الذي يمر في منتصف الشارع العام قاسماً إياه إلى طريق للذهاب، وآخر للإياب.

على تلك الرصيف الوسطي، كما يسمونه، كنت أقف، أعطي تعليمات للعامل الذي كان في الشرفة يركب اللافتة الضوئية..

كان موقعي المتوسط ذلك يمنحني رؤية أفضل للافتة: إلى اليمين، أعلى قليلاً. لا، حرك إلى اليسار، انحرف أكثر، واسطها من هنا.. تعرف هذه الأمور..

.. وفجأة وأنا أعطي تلك التعليمات، وأنا في موقعي ذاك.. على ذلك الرصيف الوسطي، داهمني شعور غريب، بل اقتحمني ذلك الشك المريب، وسألت نفسي ذلك السؤال: هل المسألة هي بضعة مليمترات منحرفة يميناً أو يساراً هي التي يجب أن أراجعها، أم أن الموضوع كله يجب أن يراجع، المسألة برمتها ينبغي أن يعاد النظر فيها، موقعي أنا - لا موقع اللافتة فحسب - هو الذي يجب أن أتحرى الدقة فيه..

وأنا على ذلك الرصيف الوسطي، رأيت الحقيقة بشكل أوضح: المسألة ليست مسألة سنتمتر هنا وملمتر هناك..

المسألة هي خطوط الطول وخطوط العرض.. هل من الأصح أن أبقى هنا، أم أن أحزم حقائبي وأرحل، كما فعل معظم أصدقائي..

.. وكان الأخطر من ذلك كله. أني سألت نفسي.. هل سيسألني أولادي ذات يوم بعد أن يكبروا.. لماذا أبقيتنا هنا؟..

هل سيعاتبني اولادي ذات يوم، لأني في لحظة كهذه، في مفترق طرق كهذا اخترت أن أبقى وأن أدق وتد الاستقرار هنا..

- عندما تكون قواعد بيتك ضاربة على حافة بركان، هناك

من الدلائل على أنه قد ينفجر في أية لحظة.. لا يمكن لك إلا أن تفكر بهذه الطريقة..

خنقني سؤال أولادي المحتمل، ولا أنكر أنه لا يزال يتردد عليَّ أحياناً كالوسواس الخناس..

ولا أستطيع تصور أب - من جيلي ومن وسطي التعليمي - لم يمر عليه هذا الخاطر كالوسواس الخناس، ولو لمرة واحدة على الأقل..

أن يسألك اولادك - وهم قد كبروا - هذا السؤال بعتب وغضب وتأنيب معناه أنهم يتصورون أنك قد أمضيت حياتك في الطريق الخطأ.. وأنهم يحاسبونك على ذلك).

المشكلة مع الأولاد، وستفهم هذا عندما يرزقك الله بهم، **إنك تريد أن تسافر من أجلهم، وفي الوقت نفسه، تريد أن تبقى من أجلهم..**

نعم: إنك تريد أن تسافر من أجلهم: تريد لهم أن ينشؤوا في مجتمع مستقر، لا تهدده دوماً (حرب ما)، توفر فيه الدولة ضمانات كافية لمواطنيها، من صحة وتعليم وحق في العيش الحر الكريم، وتتوافر فيه فرص متكافئة ممكن أن ينالها الجميع بناء على جهودهم الشخصية البحتة، لا أي شيء آخر..

وفي الوقت نفسه تريد أن تبقى من أجلهم، إنك لا تريد لهم أن يذوبوا تماماً هناك. ولا أن يضيعوا هناك، ولا أن ينحرفوا هناك، إنك لا تريد لهم أن تطيح ملامحهم وهويتهم هناك. وتريد لهم، بشكل غامض ربما وغير مفهوم، أن

يظلوا متعلقين ببيت جدهم العتيق - الذي هو بيت أهلك الذي تربيت فيه - وبكل التفاصيل الحميمة الموجودة هنا، والنادرة هناك..

مع الأولاد المشكلة مزدوجة؛ تريد السفر من أجلهم، وتريد البقاء من أجلهم في الوقت نفسه، تريد التمتع بمميزات هنا، ومميزات هناك معاً ودون أي تنازل..

على الرصيف الوسطي وقفت؛ بين السفر من أجلهم، والبقاء من أجلهم..

خيار صعب. ومفترق طرق وعر.

ربما لا جواب نهائي ممكنٌ تثبيته..

ربما لا فرصة هناك للسفر، ولا معطيات واقعية لتحقيق ذلك..

.. لكن، كلما أوشك البركان على الانفجار، أو اقترب شبح ما لحرب ما، أو جاء يوم لا بيع فيه ولا شراء، حاصرك هذا السؤال من جديد، دخل إلى أنفاسك، اقتحم أفكارك..

كالوسواس الخناس سيظل يحوك في صدرك.. منظر أولادك وهم يسألون: لماذا أبقيتنا هنا؟..

(وكلما **جاءني هذا الوسواس الخناس، تمسكت بسؤال آخر، أتعوذ به من السؤال الأول، أتخيلهم وهم يسألونني سؤالاً مختلفا في وضع مختلف، فيما لو سافرت بهم إلى مكان آخر..**

أوازن بين السؤالين، وبين الوضعين، وبين اللومين والعتابين،

فأشد على أسناني، وفي مفترق الطرق ذاك، أختار السؤال الأول..).

* * *

أعرفت لماذا من الصعب جداً عليَّ أن أتلو عليك مواعظ البقاء وعدم السفر؟.

ليس فقط لأني مقتنع بأن شيئاً لن يقنعك..

بل لأني - فوق ذلك - مقتنع بأن هناك وجهة نظر وجيهة جداً لموضوع سفرك، ومقتنع عموماً، بأن كل الذين يسافرون لديهم أسباب مقنعة لسفرهم من وجهة نظرهم على الأقل..

ومقتنع خصوصاً بأنه من الصعب تلاوة المواعظ ببناء بيت، عندما تكون الأرض رخوة، والمنطقة مهددة بالزلازل، والموقع حافة بركان..

ومقتنع أيضاً، بأنه - غالباً على الأقل - من الصعب جداً على محامٍ ما، أن يستلم قضية، وهو غير مقتنع بها..

لذلك قلت لك: خاسرة خاسرة يا صديق..

ولذلك حرصت دوماً على أن أفر مما يبدو لا مفر منه، حرصت على ألّا أتكلم بهذا الموضوع..

.. ولكن ها أنا ذا، وقطع (الدومينو) المتساقطة تحاصرني، وتجبرني على الكلام..

* * *

لكن ذلك كله لا يخفف من وطأة الألم عندما يسافر كل واحد من أولئك الذين يسافرون.. والذين توشك أنت أن تكون واحداً منهم..



كل مرة يسافر واحد منكم، منهم، من أصدقائي ومن أصدقائك، في كل مرة يسافر واحد من هؤلاء يحدث شيء قد لا ننتبه له أحيانا، لكننا لو ركزنا قليلاً، لو حاولنا أن نركز البصر ونتعمق فيه، لو حاولنا أن نستشعر ما يحدث حقا، لأحسسنا بذلك النزيف الذي يحدث، الذي يتفتق من عروق الليل وأنسجته، لو أننا أمعنا النظر، لهالنا عمق النزيف وشدته..

في كل مرة ينسلخ واحد من هؤلاء من وطنه، من بيته، من عند أهله، يترك جرحاً غائراً لا يلتئم في المكان الذي تركه، أهله وأحبابه وأقرباءه قد ينسونه، وقد تلتئم جراحهم مع الوقت.. لكن ذلك الجرح الآخر - الذي لا نراه - لا يلتئم قط.. كل الجراح الأخرى تمر عليها آليات الالتئام والتجدد، كل الخلايا الأخرى ستتجدد وتعوض نفسها عبر الانقسام المتتالي.. لكن تلك الخلايا مثل الخلايا العصبية؛ لا تتجدد، لا تنقسم، لا ترمم نفسها، إنها فقط تذبل، تضمحل، ثم تموت..

.. ويبقى مكانها خالياً.. غير قابل للتعويض، غير قابل للاستبدال..

كل تلك العقول التي تهاجر، كل تلك الأدمغة التي تركض خلف تأشيرة سفر، كل تلك القابليات الخام والقدرات غير المستثمرة، لم تجد في وطنها مكانها، بل وجدت نفسها معطلة - ضائعة - دونما استثمار، وربما دونما احترام.. ولم تجد أمامها سوى أن تنسلخ من مكانها الأصلي لتبحث عن مكان آخر، ربما في قارة أخرى، وربما ليس مكانها.. ولكن هناك ستجد استثماراً لقدراتها واحتراماً لقابلياتها..

رغم النزيف الحاد، من يستطيع أن يلومهم ؟؟..



(من يستطيع أن يلومهم، إذا ما حاولوا أن يجدوا لواقعهم مستقبلاً يتصورونه أفضل؟ ومن يستطيع أن ينسى ذلك الطبيب الشاب، الأول على دفعته، الذي لو رأيته لأحببته من النظرة الأولى: شاب ذو وجه نوراني، متفوق ومؤدب ومتدين.. ولكن الأبواب مغلقة بوجهه. إنه الأول، لكن ذلك لا يعني أن راتبه سيكفي حتى لمواصلاته ذهاباً ومجيئاً إلى الكلية..

أصدقاؤه ينصحونه بأن يعمل كسائق أجرة على السيارة التي يعمل عليها والده.. وهو لا يزال يقاوم وهو غير مصدق أنه يستلم نصيحة كهذه، إنه الأول، يقول لهم بفخر في المرة الأولى، ثم بتحدٍّ، ثم بحسرة..

ثم إنه يوافق - ولو سراً - وسيقود سيارة والده لساعتين أو ثلاث في اليوم.. ليكسب مصروف يومه..

لكن ذلك لن يطول..

وبعد فترة، سيبيع والده سيارته التي يعتاش وعائلته عليها، وستبيع والدته مصاغها الذي اختزنته ذخراً لزواجه، وسيغامر هو بكل شيء ليسافر..

من يستطيع أن يلومه إذا ما أدى قسطه هو من المؤامرة، وسافر؟..).

رغم كل الحيثيات السابقة - أو ربما بسببها - التي يبدو معها السفر كأنه الحل الوحيد والمخرج النهائي.. فإني أقف هنا، لأعلن أن الأمر ليس كذلك، وأن السفر - المنتشر فكرة وواقعاً - كوباء لا يمكن صده ولا تجاهله هو محض نقل جغرافي للمشكلة، هو تحويل لموقعها دون قطع لجذورها -

إنـه انتقـال بهـا مـن مرحلـة واضحـة، المشـكلة فيهـا مرئيـة، إلى مرحلـة أخـرى، ربمـا المشـكلة فيهـا غـير مرئيـة بوضـوح، لكنهـا أكـثر عمقـاً، وأكـثر خبثـاً، وأكـثر خطـراً..

إنهـا انتقـال بالمشـكلة مـن مرحلـة أشـعة الشـمس المحرقـة لكـن الواضحـة، إلى مرحلـة الأشـعة فـوق البنفسـجية، الـتي لا تُـرى، ولكنهـا قـد تقتـل..

المشكلة هنـا: مـرض مزمـن؛ التهـاب حـاد وحمى وصداع وآلام مبرحة..

لكـن المشـكلة هنـاك: مـرض خبيـث، يتسـلل بصمـت، ويتقـدم بصمـت، ويسـتولي بصمـت..، إنـه يقتحمـك دون أن ينبهـك - لا آلام - لا أعـراض. وفجـأة، ستشـكو مـن عقـدة بسـيطة في مـكان ما مـن جسـدك، وستراجع الطبيـب (ليطمئن قلبي) فقـط، لكنه لـن يطمئن، ذلـك أن العقـدة سـتكون الإعلان الخافت الخجـول عـن السرطان المستشري بـلا هـوادة في جسـدك.. ومـا كان يبـدو أنـه محـض ندبـة في مراحلهـا الأوليـة، سيكون في الحقيقـة سرطانـاً في مراحلـه النهائيـة..

سرطان أخطر ما فيه أن يتقدم فيك، دونما ألم.

هــذه هـي المشـكلة هنـاك، إنهـا تسـتدرجك وتحـاصرك وتقتحمـك وأنـت غـير مـدرك لـكل مـا يحـدث لـك..

إلا بعد فوات الاوان..

* * *

ستقول أني قد غششت قليلاً.

وبعد أن سرحت بك واعترفت بوجاهة فكرة السفر وضرورتها في بعض الأحيان، وبعد أن قدمت لصعوبات البقاء.. عدت وتراجعت، وقررت أن الـ(هنا) أفضل من الـ(هناك).. فالـ(هنا) صداع وحمى والتهابات، والـ(هناك) سرطان كاسح ماسح، مميت لا محالة..

.. ستقول: إني أنا الذي أشبه السرطان، أتسلل بهدوء وخفة وعلى أطراف أصابعي لأصل إلى ما أريد.. أناور وأساوم وأفاصل بهدوء، ثم في النهاية، أعود إلى نفس نقطة البداية دون أي تنازل حقيقي..

ليس بالضبط، وإن كان هذا ما يبدو لك الآن.

* * *

لدينا مشاكل أساسية كما تعرف، في الفهم أقصد..

انظر إلى هذا السؤال الذي لم نفكر يوماً في الإجابة عنه؛ لأننا لم نتصور أنه يخصنا.. (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ) (الأعراف:97/7).

أو (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (لأعراف:98/7). مرَّ السؤال دون جواب.. أصلاً لم نعده يوماً سؤالاً، مجرد آية أخرى، وكفى الله المؤمنين التفكير والسؤال..

متى أتانا البأس تحديداً؟ ليلاً؟ صباحاً؟. ضحى أو عشية؟..

.. وماذا كنا نفعل عندما جاءنا البأس.. هل كنا نائمين.. لاعبين.. أم كنا في ذلك الخوض المهين.. أم كنا غارقين في إثم مبين؟..

لقد جاءنا البأس تدريجاً، في أجل لا يقدم ولا يؤخر، منذ أن

سقطت قطعة (الدومينو) الأولى التي جرت السلسلة تباعاً..

ولما أحسسنا البأس، ماذا فعلنا؟..

(فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) (الأنبياء: 12/21).

قسم منهم قام بتصفية كل أملاكه، كل ما ورثه وكل ما اكتسبه، بيوت عامرة شهدت أول ما شهدت انهيار قطع (الدومينو)، وأماكن عمل ربما لم تكن كلها نظيفة، ومال بعضه حلال، والبعض الآخر ربما ليس بالضبط، وسيارات شهدت أشياء كثيرة، وقطع أثاث (ستشهد أيضاً فيما بعد).. وأدوات كهربائية بحالة جيدة وبالكاد مستعملة، كل ذلك سيكدس، ويباع - للاستعجال - بثمن بخس.. ويختزل ذلك المتاع كله، إلى ورق أخضر لعين يدس في مكان ما. ثم (إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ).

ولقد رأيتهم أنا، ورأيتهم أنت، ورأيناهم جميعاً عندما كانوا يركضون.

بل إننا وقفنا نودعهم، ووقفوا ليودعونا، ولعلنا بكينا، أظنهم أيضاً بكوا - رغم أنهم كانوا يركضون..

وفي غمرة ركضهم وتراكضهم، وانشغالهم بلم حاجياتهم، وتصفية ممتلكاتهم، وفي غمرة صخب الوداع وضجيج الأشواق والدموع، فإنهم يكونون عاجزين تماماً عن سماع ذلك الصوت الذي من المفترض أن يدوي في آذانهم..

(لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تُسْأَلُونَ) [الأنبياء: 13/21].

لاتركضوا..

لكنهم لا يسمعون.. ويستمرون بالركض. ليس ثمة إمكانية للرجوع (إلى ما أترفوا فيه) لقد راح الترف أدراج الرياح، وهم دوماً يؤكدون - دون أن يكون هناك من يصدقهم، ربما هم ذاتهم لا يصدقون - أنهم سوف يعودون عندما تتحسن الأوضاع!، والأوضاع لا تتحسن قط. أو إنها ربما تزداد سوءاً فوق ذلك، أو هي تتحسن لكنهم لا يعترفون بذلك..

(وَارْجِعُوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ)..

لا رجوع هناك.. لقد أضرموا النار في جسور العودة. بعض منهم على الأقل فعل من أجل أن يحصل على إقامة في هذا البلد أو ذاك، ما يجعل عودته لبلده أمراً شبه مستحيل..

وآخرون - ربما هم الغالبية - لم يقترفوا ذلك، ربما لم يكونوا راغبين بالعودة حقا، **لكنهم كانوا يريدون أن تظل إمكانيتها قائمة.** لذلك فهم لم يضرموا النار في الجسور، ولم يقطعوها، لقد ظلت هناك، لكنهم لم يستعملوها..

بالتدريج، يصير المشي في حقل ألغام أسهل من التخطي على جسر العودة المركون هناك كـ(ديكور) متهاوٍ في خلفية الذاكرة..

(وَارْجِعُوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ)..

لكنهم لا يرجعون..

لكن ذلك، للأسف، لا ينهي البأس.

(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) [الأعراف: 99/7].

.. ومن المكر الإلهي أن البأس يأتيهم هناك أيضاً: ضحى، بياتاً، نائمين.. أو لاعبين..

المهم أنه سيأتيهم، بل سيحيق بهم، ويحاصرهم، لكن هذه المرة من حيث لا يشعرون..

* * *

لدينا مشاكل، كما قلت..

وكلما واجهتنا مشكلة من المشاكل هنا، تصورنا أن الحل يكمن في السفر إلى هناك..

تذهب لتراجع في مؤسسة حكومية ما، فتعاني الأمرين، وتلاقي الأهوال، ويقتلك هذا الذي اسمه الروتين قتلاً شنيعاً، وتمثل بجثتك تلك التي اسمها البيروقراطية تمثيلاً بشعاً..

لا تريد سوى حقك القانوني، لكنك مضطر لاستجلاب الواسطة، ولدفع الرشوة، وللدخول في مسالك المجاملة وحتى النفاق مع أناس ما كنت تحدثهم في الأحوال الاعتيادية..

وفي خضم ذلك كله، ستجد نفسك تقول لنفسك، إنك لو كنت هناك، كما فلان أو علان من أصدقائك أو أقاربك، لما عانيت من ذلك كله..

(.. وأنت على حق)..

ينقطع الهاتف لسبب أو لآخر: زخة مطر قوية أو حتى

متوسطة القوة، أو حادث سيارة مجاور للكابينة، أو صيانة موسمية للخطوط، أو هكذا بدون سبب على الإطلاق.

وتصاب بالهلع، لأنك تعرف ما سيحدث تباعاً، ستذهب لتقدم شكوى، وستلمح للموظف استعدادك لأن تدفع سواء آجلاً أو عاجلاً... وستذهب إلى بيتك متمسكاً بحسن النية: وستنتظر يوماً ويومين.. لكن هاتفك سيظل صامتاً، وشكواك ستظل حبراً على ورق..

بعدها ستضطر لمطاردة المأمور المبجل الذي يتقن فن المراوغة والاختفاء أكثر بكثير مما يتقن عمله.. وستحفظ مواعيد مجيئه ومغادرته، والمقهى الذي يشرب الشاي فيه والمطعم الذي يتناول غداءه فيه.. من أجل أن تحظى بنظرة منه على خطك الهاتفي..

.. وعندما يتحقق المطلوب، وتحدث المعجزة، وتعود الحياة إلى سلك الهاتف الميت، فإنك ستمد يدك في جيبك وأنت محتار: هل تجزل له العطاء فتستطيب له العودة ويكر على هاتفك؟ أم هل تقتصد في ذلك، فيغضب ويعاقب ويكر أيضاً..

وفي خضم تلك الحيرة، ستقول نفسك لنفسك: إن شيئاً من هذا لا يحدث هناك..

.. (وستكون على حق).

الكهرباء.. الماء.. زحام السير.. رصيف الشوارع.. القمامة وعمالها، البريد ورسائله وموظفوه..

في كل تفصيل من تفاصيل حياتك: ستجد نفسك في لحظة

ما، تقول لنفسك.. **لو أنك كنت هناك..**

.. وللأسف، في أغلب الأحيان ستكون على حق.

وبالتدريج، ستنمو معك صفة شخصية وعادة ستصير لصيقة بك أكثر فأكثر، ستنتقد كل شيء هنا، وتقول: لو أنك كنت هناك..

وبالتدريج، وفي حالة متقدمة، ستطال انتقاداتك أموراً قدرية لا سبيل لتغييرها، مثل حرارة الجو، أو الغبار.. أو عدم وجود بحار وغابات كتلك الموجودة في أوروبا!!..

في كل شيء، ستدور بوجهك متأففاً وتقول: هناك!.

* * *

.. والحقيقة أن كل ملاحظاتك - أو معظمها على الأقل - سيكون صحيحاً، وأن معظم المشاكل التي ذكرتها ليس لها وجود إطلاقاً هناك..

ما أن تطأ بقدميك الأرض هناك، سيكون هناك اختلاف جلي في التعامل معك: فرداً، إنساناً له قيمة موجبة. صحيح أن ذلك سيكون مشوباً بتحفظ وبرود لم تتعوده، لكن ذلك لن يضيرك في شيء، فقد تعودت أيضاً أن تسيء الظن بالحرارة وكلمات المجاملة التي تسيل من أفواه الموظفين (هنا)..

هناك ستكون أنت حاصل مجموع عدد من النقاط، صحيح أن نسبة كبيرة منها ستكون مرتبطة بكم في جيبك أو رصيدك الذي يمكن أن تضيفه في البنك هناك، لكن ذلك لن يكون كل شيء، بل سيكون هناك أيضاً حصة لشهادتك، وكفاءتك، وخبراتك

وعمرك.. أي إنك ستعامل كطاقة محتملة تضاف للمجتمع..

وحتى لو كنت رقماً فإن هذا لن يكون سيئاً جداً، خاصة بالمقارنة مع الوضع هنا، حيث كنت طاقة مهدرة تماماً.. رقماً أيضاً - لكن أقرب للصفر على الشمال..

وذلك لن يكون كل شيء أيضاً..

ففي كل فقرة من التصعيب والتعقيد والروتين هنا، ستقابلها هناك مساحات من التبسيط والسلاسة والتسهيلات الادارية، وبدلا من أن تفقد كرامتك ووقتك ومالك وأعصابك وأنت في مراجعة لطلب رسمي ما - كما يحدث هنا - فإن كل ما ستفعله هناك هو أن تودع طلبك في رسالة، مرفقاً بها كل المستندات المطلوبة وربما الطوابع، وتضعها في صندوق البريد، ليتابعها ويرد عليها موظف لن ترى وجهه قط، ناهيك عن أن تضطر لمجاملته والخضوع لمزاجه وتقصي أخباره وحتى زيارته في البيت، كما يحدث عندنا أحياناً..

وقبل أن تصير مواطناً عندهم، ستصبح لك كل مميزات المواطنة، ويمنحونك كل حقوقها قبل أن تمارس أياً من واجباتها (هٰذا إذا مارست أي واجب أصلاً)..

.. ولن يكون هناك أي احتمال لحدوث أي خلل في الخدمات (في الطاقة الكهربائية مثلاً) وإذا حدث ذلك - لأي سبب - فإن الأمر سيتصدر نشرات الأنباء، وقد يفتح تحقيق في الموضوع لمعرفة المسؤول عن ذلك، وبعدها بسنوات، كلما مر تاريخ ذلك اليوم، سيذكر الأمر باعتباره من أبرز الأحداث التي وقعت في يوم كهذا..



وستتأمل في ذلك كله، وربما ستبتسم وأنت تذكر كيف كنت تفرح إن هُم أعادوا لك التيار قبل خمس دقائق من موعد عودته، وكيف كنت تترحم لآبائهم وأمهاتهم إن هم تركوك نائماً على التكييف في ليلة قائظة دون أن ينغصوا عليك بقطع الكهرباء.

.. وستتعجب، في نفسك، كيف كنت تحتمل ذلك؟ وربما لن تنسى أن تحمد الله لأنه مَنَّ عليك بأن نقلك من هنا - إلى هناك، وأنقذك من ذلك كله..

حقيقة لا داعي لإنكارها ولا مفر من الإقرار بها: مشاكلُ هنا، غير موجودة هناك..

* * *

لكن هذا، في الوقت نفسه، لا يعني أن لا مشاكل هناك..

* * *

وهو أيضاً، لا يعني أن المشاكل هناك أقل.

إنه فقط يعني، **أن نوعيتها مختلفة..**

* * *

كما قلت لك، نزلة البرد حين تعصف بك، تملأ رأسك بالصداع وصدرك بالسعال، فتجد نفسك عند أقرب طبيب، أو أقرب صيدلية..

لكن السرطان يمشي رويداً رويداً، بخفة وحذر، دون أن يترك أثراً ودون أن ينبه أحداً لذلك، وخصوصاً أنت. وفجأة، ستجد نفسك تتعالج كيميائياً أو بالإشعاع.. أو في المقبرة.



الأمراض الزاعقة، ليست بالضرورة هي الأخطر..

كذلك المشاكل الزاعقة، ليست بالضرورة، هي الأكثر خطراً..

* * *

ستدق عليك الباب ذات مرة في الغربة، هناك ذات مساء بارد.

وستهب مذعورا. إنك لا تنتظر أحداً، ولا تتوقع من أحد أن يدق عليك الباب دون موعد مسبق، كما هو المعتاد هنا.

وستفتح الباب، فإذا بك تجد وجهاً غريباً يمنحك ورقة استفتاء لتدلي برأيك في قضية ما.

ستفرح قليلا: أخيراً صار لك رأي محسوب، هناك من يهتم ليتبعه ويرصده ويضعه في موضعه، صحيح أن رأيك سيضيع وسط جموع الأراء وقد لا يحدث أثراً، لكن على الأقل، هو موجود، وها هم يطلبونه منك.

ستحاول أن تفهمهم، أنك غريب هنا، وأنك عربي، ومسلم، وأنك من بلد آخر وقد جئت هنا للتو، لكنك ستحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة، وستذكر كل تلك الاوراق والملفات التي ملأتها، طالباً فيها حق اللجوء أو الهجرة أو التجنس.. إنها لم تكن حبراً على ورق بعد كل شيء، إنها واقع أنت أردته، وعندما تأخذ الميزات وتتمتع بنعم الاستقرار هناك، فإن عليك أن لا تنسى أنك أصبحت تحمل جنسية ذلك البلد الذي لا تزال ترطن بلغة أهله (الدانمرك، النرويج، هولندا، أو ألمانيا -أو ربما أمريكا؟؟)..

حسناً.. لن تنسى ذلك. وستأخذ ورقة الاستفتاء لتدلي

برأيك، ستصطدم مرة أخرى باللغة.. ستحاول أن تفك الرموز الصماء، وشيئاً فشيئاً ستتضح الصورة، لكنك لن تصدقها، فتعيد الكرة محاولاً أن تفك الرموز مرة أخرى، فتظهر لك الصورة نفسها..

وستظل غير مصدق.. إنهم يأخذون رأيك في مسألة تهمهم وتقض مضاجعهم، لكنها ستبدو لك مثل نكتة لا يجدي معها حتى البكاء: إنهم يتناقشون حول إعطاء المزيد من الحماية والحقوق للكلاب، وتأثير ذلك على الميزانية، وهم يريدون أن يأخذوا رأيك في ذلك: هل توافق أن تأخذ الكلاب المزيد من الحقوق - أم أنك ترى أن ما حصلت عليه حتى الآن، يكفي؟.

وستضحك بمرارة لا حدود لها. وبعد أن تنتهي من الضحك ستجد في فمك دمعة مالحة ستغص بها، الكلاب!؟ أنت القادم من بلاد كدت أن تموت فيها من أجل أن تثبت حقك في العيش فقط، ويستفتونك في الكلاب!..

.. وستذكر الكلاب في بلادك وكيف كان أطفال المنطقة أحياناً يتسلون بتعذيبها، وكيف كانت تسرح في القمامة تلقط رزقها وتتجول أحياناً في مجموعات (إرهابية)، خاصة فجراً.

لن تشعر بالحزن من أجل الكلاب في بلادك، طعم الدمعة المالحة في فمك لن يخص الكلاب، بل ستذكر كيف شعرت بالقليل من الغيرة والكثير من الحقد الطبقي تجاه الكلاب المرفهة - هنا في الغرب - عندما جئت للمرة الأولى، وكان وضعك لا يزال قلقاً وأوراقك غير كاملة، وكنت على شفا حفرة من إخراجك من البلاد، وكنت ترى الكلاب أمامك تسرح وتمرح: مطاعم خاصة، وأماكن خاصة لها في المطاعم

العامة، أماكن لقضاء الحاجة، رفوف عامرة بما لذ وطاب من الطعام في أجنحة كاملة في (السوبرماركت). أكثر من ذلك: قنوات تلفزيونية خاصة للترفيه عنها، ومراكز للعلاج النفسي ولحمايتها من الكآبة. كل ذلك بينما أنت وضعُك غير مستقر، وهم ينظرون في طلبك ليقرروا بعدها: هل يبقنوك أم يعطونك مهلة لإلقائك على الحدود..

وستفكر بأسى، وأنت تشعر بالحقد الطبقي أمام الكلاب، أنك - ربما - لو كنت كلباً سائباً في بلدك، وجئت إلى هنا طالباً اللجوء والحماية، لمنحوك ما تريد بأسرع مما لو كنت كما أنت؛ آدمياً طالباً لم شملٍ حقيقي، لديك شهادتان جامعيتان، وربما في إمكانك أن تقدم لهم أكثر مما يقدمون لك..

يستفتونك في الكلاب!، ولن تتذكر الكلاب في بلادك، ولكن سيذكرك استفتاؤهم بالناس فيها، أولئك الجياع الذين يطرقون الأبواب سائلين لقمة، وأولئك الأطفال الذين يسرحون في الشوارع باحثين عن صدقة، وأولئك الذين يبحثون عن رزقهم بين أكوام القمامة..

ذات يوم بارد، سيحدث لك ذلك، سوف يستفتونك في الكلاب، ستضحك أولاً، ثم ستذكر حقدك الطبقي ثانياً، ثم سيغمرك حزن شفاف وأصيل ثالثاً..

ثم، ربما بعدها بفترة طويلة، ستفهم رابعاً...

ذلك أن ترف الكلاب هناك، هو المحصلة المعادلة لفقر الناس هنا. وتلك التخمة المريضة هناك، هي المقابل الطبيعي للجوع المرير هنا. و(الفاتورة) الحقيقية لرفاهية

الحيوانات المنزلية لا يدفعها أصحابها المولهون بها، ولا دافع الضرائب المحلي عندهم، ولكن هذه (الفاتورة) تدفع من جوع شخص آخر وعرقه ودمه، ربما مر أمام بيتك صباح العيد، وطرق الباب، (وربما لم تفتح له)..

.. بعدها، خامساً، ستفهم أكثر وأكثر: وسوف تعي أنهم لا يحبون الكلاب حقاً بقدر ما كنت تتوهم، ولكن إله الاستهلاك وأوثان المجتمع الاستهلاكي تحتم على الناس أن يحبوها من أجل تقديم قرابين إضافية على مذبح عجلة الإنتاج، وما دامت الكلاب (ومن بعدها القطط) تصلح لأن تكون أعضاء نافعة في نادي الاستهلاك المستديم، فإنها ستظل مفضلة، وسيظل هناك من يدافع عنها ويطالب بحقوقها، ولو حدث واكتشفت فصيلة أخرى قادرة على رفد مذبح الاستهلاك بقرابين أكثر، ودفع العجلة بسرعة أكثر، لصارت هي المفضلة والمقربة والمحبوبة في عالم فقد رشده منذ زمن بعيد.. لذلك فالجرذ أو السحلية أو أي فصيلة أخرى قد تبدو مقززة لك الآن، قد يصيران يوماً حيوانات منزلية أليفة ومحبوبة..

هناك: لا فضل لفصيلة على أخرى، إلا بمقدار ما تستهلك..

وسيشمل ذلك فصيلتك التي تؤويك..

* * *

بالتدريج سيغمرك ذلك الشعور، إنك رغم الرفاهية النسبية التي حزتها، والضمانات الاجتماعية التي نلتها، فإنك لا تزال في مرتبة واحدة مع الكلاب، صحيح أن مكتسباتك

أكثر، ورفاهيتك - والحق يقال - أوفر، لكن المشكلة أن نوعية المكتسبات واحدة، المشكلة أن نوعية الحياة متشابهة.

ستنتبه بالتدريج أن مكتسباتك كلها صبت في نفس المصب الذي اكتسبت فيه الكلاب حقوقها: الطعام، المسكن، الضمان الصحي، حق التقاعد.. الخ.

ستنتبه أن الأمر يبدو كما لو أن متطلباتك أنت والكلاب والفصائل الأخرى واحدة، وأنهم يعاملونك على هذا الاساس..

وسوف تفهم بالتدريج، أن ذلك يعني أنك أصبحت مجموعة حاجات لا تفرق كثيراً عن حاجات الكلاب، حاجات غرائزية بحتة، حاجة للبطن وحاجة للفرج وحاجة لسقف وحاجة لملبس..

لا أقول لك إنك سوف تندم، لكن شيئاً ما في أعماقك سوف يظل ينبض، وأحياناً سوف يصرخ، ويلح بالصراخ. ويضرب جدران زنزانته مطالباً بالخروج..

لا أقول لك إنك سوف ترجع، لكن شيئاً ما في أعماقك سوف يظل ينمو، إنك لم تنتبه لوجوده قبلاً. طبعا كنت تعرف أنه موجود، لكنه لم يصرخ فيك هكذا من قبل، وعندما فكرت بالسفر، ثم حزمت حقائبك ورحلت فإنك بالتأكيد كنت تفكر في تلك المتطلبات الأخرى التي حصلت عليها فعلا فيما بعد..

لكن هذا الشيء...

إنه بالضبط غير موجود عند الكلاب، ولذلك فالأمور معه لم تسر على ما يرام كما حصل مع الحاجات الأخرى..

سدت حاجات الكلاب، ولكن في أعماقك ظل هذا الشيء يسيل وينبض، لم يسده شيء..

وذات يوم سيواجهك هذا الشيء، سيصدمك، ربما في نومك بين صحوك وكوابيسك. ربما في لحظة أخرى أمام المرآة، ربما عند وحدتك، وربما عند احتضارك: سيواجهك، سيكون صريحاً معك، سيقول لك: إنها حياة كلاب، تلك التي عشتها، تلك التي ضحيت بكل شيء من أجلها، تلك التي كانت حلم الليل والنهار بالنسبة لك..

بطريقة أو بأخرى، **نعم، إنها حياة كلاب.**

* * *

لن أقول لك إنك ستندم..

لكن في لحظة ما، ربما عندما تكتشف بعض ما كنت تتغاضى عنه من أوضاع أولادك أو بناتك، سيغمرك شعور أنك قد بعت روحك للشيطان عندما ذهبت إلى هناك، وستتذكر تلك اللحظة التي ملأت فيها المعلومات في الأوراق والوثائق التي قدمتها من أجل الحصول على الجنسية أو جواز السفر..

وستحاول جاهداً أن تتذكر شكل الموظف الذي استلم منك الطلب والوثائق، وستجهد ذاكرتك في أدق التفاصيل، هل كانت أذناه مدببتين، هل كان لديه قرنان مدببان في رأسه، هل يا ترى، لو التفت لرأيت خلفه ذنباً كذلك الذي تراه في الصور التخيلية للشيطان؟؟

لكن لا. ستتذكر ما قلناه سابقا من أن الشيطان يمتلك ألف وجه ووجه، وأنه على الأكثر سيختفي خلف وجه وسيم، ربما بشعر أشقر وعينين زرقاوين، وربما خلف وجه عادي الملامح..

تلك الأوراق التي وقعتها، تراها كانت العقد الذي بعت فيه روحك للشيطان؟

.. وهل كانت تلك هي الحلقة الأخيرة (المطلب النهائي) من سلسلة المؤامرة العتيقة؟.

* * *

.. قلت لي مرة، منذ فترة، إنك في قرارة نفسك تعلم، أنك عندما تذهب هناك ستفتقد أموراً معينة بدأت تتعود عليها..

هربت عيناك عندما قلت ذلك، كما لو كنت لا تريد أن تفصح لي عن تلك الأمور التي بدأت تتعود عليها هنا، والتي ستفتقدها هناك..

ولم أكن أريد أن أسألك عنها. كنت أخاف أن تخيب آمالي..

ناورت لشهور، ولم أسألك عن ذلك، (كنت لا أزال خائفاً)..

وعندما سألتك، تذكرت أنت فوراً ما قلته لي وقتها، وقلت لي دون تردد إنك هناك ستشتهي أن تصلي الفجر جماعة.. ومن أين لك بالجماعة؟؟.

واستعملت ذلك التعبير الذي لن أنساه، والذي نادراً ما يستعمله أحد للصلاة، قلت: تشتهي...

* * *

يا صديق...

ذات يوم.. وأنت في غمرة انشغالك بالركض خلف متطلبات الحياة الاستهلاكية، ورأسك مشغول كحاسبة ملآنة بالأرقام والمواعيد والتفاصيل.. وساعة يدك منصوبة على توقيت ساعة يد مدير عملك، وقلبك مربوط بأسلاك توصلك لتلك الأقساط المتبقية التي ستظل تسدد فيها طيلة عمرك، ويدك مغلولة بسلاسل تشدك كما تشد القطيع الراكض معك، وعنقك مرهون عند بائع العقارات، ورئتاك موصولتان ببوصلة التذبذب واللاإستقرار..

وروحك هناك - مطبوعة على بطاقة (الكريدت كارد)..

ذات يوم..

وأنت هناك، في الزحام، وأنت معهم، ذبت فيهم، ضاعت ملامحك بالتدريج، لو شاهدت نفسك في صورة جماعية التقطت في الزحام لما ميزت نفسك من بينهم، لقد انتميت إليهم، ربما لم تكن تقصد ذلك أو تنويه، لكنه حدث...

في السنة الأولى، لم تستطع احتمال الأمر، ذلك السير الحثيث باتجاه مسير القطيع..

في السنة الثانية، تعودت الأمر..

في السنة الثالثة، وحتى دون أن تشعر، صرت واحداً منهم..

وأنت هناك، ذات يوم..

وأنت تركض مثل جرذ لاهث في سراديب (المترو)، في سباق (ماراثون) الموت اليومي، وأنت تحشر نفسك كالسردين المعلب

في تلك التوابيت المعدنية المضيئة المسماة بـ(المترو).

بينما تخطو تلك الخطوة في زحام القطيع الصاعد إلى (المترو)، سيهب عليك فجأة، ودون سابق إنذار، صوت سيجعلك تتجمد في مكانك رغم أن أصول الزحام ونظامه لا يسمحان لك بذلك..

لكن هذا الصوت سيجعل الدم يتجمد في عروقك، لقد كدت تنسى أن لك دماً، لكن ها هو الصوت يجعلك تكتشف أنه لا يزال يسري فيك، وها هو يجمده..

.. ستقف في مكانك، أعصابك مشدودة، وأطرافك مشلولة.

.. والصوت يهب عليك ولا تعرف من أين.. ربما من كل مكان، وربما من لا مكان على الإطلاق.

ربما من ركن من أركان روحك، وربما في زاوية من زوايا (المترو)..

ذلك الصوت، ذات يوم، بينما أنت جرذ لاهث..

سيهب عليك، ويحاصرك، ويلقي القبض عليك ثم يقيدك...

آه.. ذلك الصوت..

إنه صوت الأذان..

سيهب عليك من مكان ما من ظلمة النفق هناك.. صوت عذب وحنون، قوي ومعبر. لكنه حزين حزين حزين...

ربما كان صوت مهاجر مثلك، مغربي أو جزائري أو من أي



دولة تنزف أبناءها كما تفعل دولتك، اكتشف في ذات اللحظة كم سنة مرت عليه دون أن يؤذن، وهو الذي تعود الأذان منذ طفولته البعيدة في ذلك الجامع القريب من بيتهم..

.. وجلس في ركن ليؤذن كما لو كان يريد أن يتأكد من أنه هو هو..

صوت الأذان.. آه صوت الأذان..

لن تعرف بالضبط كم من السنين مرت دون أن تسمعه بشكل حي.. وسيؤذيك ذلك أكثر مما تتخيله الآن..

ليس من أجل الصلاة، والمعاني المحتواة فيه فقط..

لكنه سيأخذك إلى ذلك الزمان البعيد، والأحلام البعيدة، والبلاد التي تربيت فيها وصارت بعيدة..

سيأخذك إلى بيتكم القديم، والشوارع الأربعة، والحديقة التي فيها أنت وإخوتك كنتم تلعبون..

سيأخذك إلى ظهيرة دافئة، وأنت راجع من مدرستك، وحقيبتك على ظهرك، وتحمل جوعك وسؤالك إلى والدتك عن الطعام الذي أعدته.. وتلك (اللَّمَّة) التي لن تعود.. لن تعود.. لن تعود..

صوت الأذان.

سيأخذك إلى مدرستك القديمة.. وساحتها التي كانت تبدو واسعة، ومدرسيها الذين توفي معظمهم.. ومناهجها التي تغيرت. ومديرها الذي كان مهيباً.

لو أنك تراه الآن: كئيباً رث المظهر، يجلس في ركن منزوٍ من المقهى..

.. وسيأخذك صوت الأذان إلى أقرب أصدقائك وقتها، وإلى ذكرياتكما المشتركة وأحاديثكما البريئة وأحلامكما البسيطة، تخيل أن أحداً لم يعد يذكره، إلا والدته - لو كانت لا تزال على قيد الحياة - هو الذي مات غريقاً ذات إجازة صيف في الصف الثاني المتوسط، الآن طلبت روحه الرحمة، وذكرك به صوت الأذان، وأنت في نفق (المترو)..

آه.. صوت الأذان..

سيأخذك إلى ذلك الزمان البعيد، والأحلام البعيدة، وتلك البلاد التي عشت فيها ولكنها صارت بعيدة..

سيأخذك إلى رائحة طعام والدتك، والمدفئة في الصالة، وذلك الأمان الذي تحصله بسهولة بمجرد أن تذهب إلى حضنها..

سيأخذك إلى شخص آخر، كنته أنت ذات يوم، ربما أبسط وأوضح وأصدق وربما أيضاً أكثر إنسانية من ذلك الجرذ اللاهث الراكض في سراديب (المترو) الذي تحولت إليه..

صوت الأذان، سيأخذك إلى أولاد الجيران، وألعابكم معاً، وصراخكم معاً، وحماسكم معاً، وشجاركم وخصامكم معاً، كم واحد منهم استشهد، وكم واحد منهم فقد، وكم واحد منهم ضاع تماماً في زحمة الحياة، وكم واحد منهم صار جرذاً لاهثاً ربما في نفس (المترو) الذي تركض فيه، لكنك لم تعرفه، ولم يعرفك، ربما لأن الجرذان لا تعرف بعضها بعضاً..

صـوت الأذان، سـيأخذك إلى تلـك القيلولـة البعيـدة وأنـت تتمطـى في فراشـك الـدافئ الوثـير، أقـصى همومـك وحيرتـك يتلخـص في وقوفـك أمـام دولاب ملابسـك الملآن وأنـت حائـر في اختيـارك لمـا يناسـبك لخروجـك اليومـي المعتـاد..

آه... صـوت الأذان... ورائحـة الشـاي المهيـل وطعمـه في فمـك، والكعـك قـد أعدتـه أمـك لـك ولأخواتـك، وطلبهـا منـك أن تبقـى لتتناولـه، بينمـا تخـرج أنـت مسرعـاً للقـاء أصدقائـك.. **(وتتمـنى الآن لـو أنـك أجبتهـا.. وبقيـت)..**

صـوت الأذان! وتذكـر كـم مـرة فاجـأك وأنـت في خضـم معصيـة، وكـم مـرة نبـت في داخلـك شيء مـن الخجـل، وكـم مـرة لا..

كـم مـرة لـم يوقظـك مـن غفلتـك، مـن رقـدة الغافلـين، وبقيـت كمـا أنـت..

.. ولكن كم مرة هبيت، ولبيت، وهرولت لتصلي..

وسـيأخذك صوتـه لتذكـر تلـك الأيـام الـتي كنـت تبقـى تنتظـره أن يـأتي، وتسـتعد لـه حـتى قبـل أن يحـين موعـده، بـل كـم مـرة ذهبـت إليـه حـتى قبـل أن يـؤذن..

.. وسـيجعلك تكتشـف، صـوت الأذان القـادم مـن المجهـول، أنـك لـم تنتـم لهـم بالدرجـة الـتي كنـت تتوقعهـا، وأنـك لا تـزال متميـزاً عنهـم، فيـك أشـياء لـم تمـت تمامـاً..

.. وستكتشف أنك لا يزال بإمكانك أن تبكي..

وبينمـا تمسـح دمعتـك وتصعـد لـ(المـترو)، سـتحقد حقـداً طفوليـاً لا حـدود لـه عـلى كل الذيـن حرمـوك مـن أن تبقـى في

بلـدك في اسـتقرار وثبـات..

قبـل أن تتوجـه بالدعـاء عليهـم، انتبـه: **لقـد كنـا كلنـا شركاء في الجريمـة.**

* * *

أعـترف أن خـوفي الكبـير عليـك يتجـاوز الحـدود الشـخصية ليصـب في مصـب عـام، في أعمـاقي هنـاك هـذا الخـوف الـذي لا يمكـن عقلنتـه ولا التفاهـم معـه، فيصـير انجرافـك المحتمـل في القطيـع هنـاك رمـزاً لانجـراف الجميـع، وسـقوطك المحتمـل هنـاك يصـير رمـزاً لسـقوط الجميـع.

ويكـون ذلـك كلـه معنـاه - في نفـسي - أنـه لا أمـل، وأنـه لا فائـدة.. مهمـا حاولنـا وأعددنـا مـن عـدة فالوحـش الـكاسر هنـاك سـيلتهم الجميـع في النهايـة..

أجـد الأمـر كمـا لـو كان امتحانـاً أتمـنى تجنبـه.. وبالـذات أتمـنى تجنيبـك إيـاه..

.. وأعـترف أن الأمـر صعـب. ولكنـك بـلا عـذر: فبعـد أن عرفـت الـذي عرفتـه، وخضـت الـذي خضتـه، وتذوقـت الـذي ذقتـه.. لا عـذر لديـك، لـم يعـد عنـدك حجـة. لقـد كلفـك الله - الـذي لا يكلـف نفسـا إلا وسـعها - بمـا في وسـعك..

فلـو خرجـت الآن وأنـت تعلـم وبعـد كل مـا بـدر منـه مـن محبتـه لـك..

أخـشى أن أقـول.. لـن تعـود.. لـن يمكنـك أن تعـود.. لـن يقـودك.. إلى دربـه مـرة أخـرى..

لذلك أتنهد وأقول: نعم، خوفي كبير..

فأنت الآن على بينة، ولو هلكت، فسيكون ذلك على بينة..

ولو حييت، لكان ذلك أيضاً على بينة..

* * *

كابوس يلح علي، يطاردني ليل نهار ويعذبني كعادة كل الكوابيس، فاسمح لي أن أبوح لك به، وأن أعذبك به أيضاً، حتى تتمكن من تجنيبنا إياه..

* * *

أراك هناك..

وسهرة عيد، والرؤوس مجتمعة، أقارب وأصدقاء، وضجيج اللقاء، وأطفال يتراكضون ويلعبون، وأمهات يطالبن بالهدوء بينما يتراكضن بين المطبخ والصالة..

أراك هناك..

والدنيا برد وثلج، والصالة دافئة، والطعام ساخن، وبخار الحساء المتصاعد يرسم الذكريات والقلوب على النوافذ، سرعان ما تمحى كما كل شيء.

وأراك هناك..

والهدايا منتقاة بعناية، مغلفة بإتقان، ومصفوفة بطريقة تظهرها وربما تزيد من حجمها ومن أثمانها..

أراك هناك..

سهرة عيد، ضحك وصخب ونكات وتعليقات وأحضان وقبلات..

لكنه - ويا للأسف - ليس عيدكم..

وتلك الشجرة التي تحلقتم حولها، وقضى بعضكم نهاره في تزيينها، ودفع دم قلبه سعراً لها ولزينتها، تلك الشجرة المنصوبة كوثن.. للأسف ليست شجرتكم..

وتلك القصة التي تروى في عيد كهذا، ومع شجرة كهذه، في ليلة كهذه، قصة مزيفة، محرفة، لو صدقتها برهة لكفرت ولخرجت من ملة آبائك واجدادك، ومع ذلك فإنك مضطر للسكوت؛ لا يمكنك أن تفسد السهرة والعيد بمناقشات وملاحظات ستشوش على الأطفال فرحتهم.. فاسكت إذن (هل بَقِيَت على هذه؟) ابتلعها كما ابتلعت كل شيء.. - وكما ابتلعك كل شيء -

ابتلع، وغص، وتجرع..

سيتكرر المشهد كل عام، كل عام، وعاماً بعد عام ستضمحل احتجاجاتك على القصة المزيفة و(الديكور) الوثني، **عندما تسكت مرة، فإنك ربما لن تفتح فمك إلى الأبد، وعندما تبيع روحك للشيطان، فإنك لن تفسخ عقد البيع معه بسهولة..**

عاماً بعد عام سيزيد الأطفال عدداً، وسيكبر الكبار منهم، وسيتراكضون ويتضاحكون فيما بينهم بتلك اللغة الأخرى، في ذلك العيد الآخر، وتلك الليلة الأخرى..

عاماً بعد عام، سيصير كل شيء أكثر إتقاناً وتزويراً: الشجرة وزينتها والطعام الخاص المعد للمناسبة، الهدايا وأغلفتها، حتى الفرحة ستصير أكثر إتقاناً..

عاماً بعد عام، سيصير هذا العيد عيداً حقاً..

ولأنك سوف ترى دون أن تبصر حقاً، فإنك لن تنتبه إلى أن تلك الشجرة الملعونة المنتصبة في طرف الغرفة، تحمل في زينتها رؤوسكم وقد قطعت وشلحت عن أجسادها وعلقت في أطراف أجذاعها..

.. وأراك هناك، ورأسك الغالي، ورؤوسهم الغالية، قد جزت من الأعناق، وعلقت من آذانها وأنوفها وشعورها في أطراف الشجرة..

وأراكم هناك، رؤوساً بلا رؤوس، رؤوساً فقدت هويتها، ثم انتماءها ثم ملامحها..

ثم قطعت وعلقت كزينة لشجرة ميلاد ذات ليلة رأس سنة ميلادية..

وأراكم هناك، متحلقين حول تلك الشجرة الملعونة في القرآن، التي تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين..

وحول الشجرة أنتم هناك، ضاحكين لاهين لا مبالين..

إنكم لا تبصرون. ولا تعلمون.. ولا تدركون..

وفي الكابوس هناك، أرى تلك الشجرة وأنتم حولها - حلقة أخيرة من تلك المؤامرة. وقد نجحت وحققت مبتغاها..

* * *

إنه كابوس فقط، فلا تبتئس، واستعذ بالله العليم الحكيم من الشيطان الرجيم.

ولا تدعه يحدث!.

في أحسن الأحوال، وأتقاها، وفي الظروف المثالية أيضاً، فإن المشاكل العميقة ستظهر على السطح مع مجيء الأطفال وبداية وعيهم..

أعني، إنني سأفترض أنك قبل هذا استطعت أن تصمد وأن تحافظ على نفسك وعلى هويتك وعلى انتمائك.. رغم صعوبة الأمر.

مع الأطفال، سيصير الأمر أصعب وأعقد وأشد..

في السنة الثالثة من أعمارهم - أو قبلها بقليل - ستشعر بالقليل من الخطر الذي سيتزايد باستمرار، مع بداية دخولهم لرياض الأطفال..

ستكون هناك مشكلة اللغة.. لعلك ستفرح قليلاً عندما تراهم يتعلمون كلمات من هنا وهناك من تلك اللغة الأخرى، وستقول في نفسك إنهم لن يعانوا كما عانيت في تعلمها.. وإنها ستفيدهم في كل الأحوال..

بالتدريج، سيزيد خوفك ويقل فرحك، خاصة عندما يحملون معهم تلك الكلمات والقواعد والجمل معهم إلى البيت ليستعملوها فيه، وفيما بينهم..

لن تستلطف ذلك، خاصة عندما سيزيد ويزيد.. وسيكون ذلك على حساب لغتك الأم..

ستنوي الحزم، وستقول: **العربية فقط في البيت..** ولكنها العامية فقط كما تعلم، وهي أضعف من أن تصمد..

وفجأة، ستجدهم وقد صاروا في التاسعة أو الثامنة من العمر وهم لا يتقنون حتى التهجؤ بالعربية، وفجأة سيصير ذلك خنجراً يكرر طعناته في قلبك..

وستحاول معهم. سيكون ذلك صعبا جداً عليك وعليهم، عليك لأنك لست مؤهلاً لتعليمهم، وعليهم لأنهم ببساطة غرباء عما تحاول أن تلقنهم إياه..

.. وسيخيل لك أن أدمغتهم قد ركبت بطريقة مختلفة..

وستحاول مجدداً.. في مناسبة ما ستجلب لهم كراريس وكتيبات ملونة وأشرطة وأقراص لتعليم العربية، سيشكرونك باقتضاب ولن يحاولوا إخفاء خيبة الأمل على وجوههم..

وستكون خيبة الأمل على وجهك أنت عندما تكتشف أنهم لم يقلبوها قط..

ولم يحاولوا قط.. وستظل منفية ومعزولة هناك على الرف..

وستحاول أكثر وأكثر، وستجد مدرساً خاصاً يعلمهم اللغة العربية في أيام الأحد.. سيذهبون عدة مرات ويعودون مقطبي الجبين كل مرة لسبب مختلف وربما مفتعل، مرة سيكون المدرس ثقيل الدم، ومرة سيقولون الطريق طويل ومتعب، ومرة سيقولون إن الدرس حرمهم من الذهاب لحفل عيد ميلاد صديق من أقرانهم..

وسيعتذرون مرة أو اثنتين عن الذهاب بحجة الدروس. وأخرى بحجة المرض.. ورابعة وخامسة بلا حجة..

وشيئاً فشيئاً سيبتلع الوقت والتفاصيل والأعذار المدرس..

ودروسـه.. وأحرفـه وألغـازه..

وسـتجدهم قـد شبوا فجـأة، ولـم تعـد لـك سـلطة عليهـم - وهـم لا يتقنـون إلا أحرفـاً متناثـرة هنـا وهنـاك.. حـتى عاميتهـم سـتجدها قليلـة الاسـتعمال، مكـسرة وهجينـة، شيء مـن العـراق وشيء مـن الشـام وآخـر مـن المغـرب وآخـر مـن مـصر.

وسـتصحو ذات يـوم عـلى هـذه الحقيقـة، إنهـم لا يسـتطيعون أن يلفظـوا اسـم هـذا الـذي أرسـل إليهـم بشـكل صحيـح. وإن الحـاء في اسـم **محمـد** تلفـظ هـاء..

.. لقـد سـقط الحـاء مـن ألسـنتهم، كمـا سـقط مـن لسـان ابنـة أختـك، وأيضـاً مـن لسـان ابنـة أختـي..

وبعـد الحـاء سـتبحث بذعـر عـن الأحـرف الأخـرى، أقـول لـك: لـن تجدهـا..

(فسـتذكرون مـا أقول لكـم، وافـوض أمـري إلى اللـه..) [غافر44]

نعـم، سـتذكر مـا أقـول لـك يـا صديـق، وأفـوض أمـري وأمـرك وأمرهـم جميعـا إلى الله.

.. ولن تكون اللغة سوى جزء من المشكلة.

ولو كانت وحدها لهانت.

لكـن بالتدريـج سيتكشـف الأمـر عـن كـوم هائـل مـن المشـاكل الـتي تبـدو في بـادئ الأمـر صغـيرة، ولكنهـا سرعـان مـا تتجمـع لتصـير معضلـة لا حـل لهـا..

سـيزعجك، مثـلاً، دروس السـباحة الـتي تؤديهـا ابنتـك في



المدرسة، سيستيقظ في داخلك ذلك المارد الشرقي الغيور، الذي طالما لعب دور المراقب الصباحي على شقيقاته.. وسيحاول هذا المارد أن يجد ذريعة يتحجج بها للسماح لابنته بعدم دخول الدرس: تقرير طبي مثلاً أو شيء من هذا القبيل.

لكنه الغرب يا صديق وواسطات كهذه ليست بالسهولة التي تتصورها. وابنتك حريصة على درس السباحة كما كل زميلاتها، وسيتبرع أحدهم بتلك النصيحة: ليس من مصلحتها نفسياً أن تعزلها عن مجتمعها الذي تعيش فيه.. ثم إنها في الثانية عشرة فقط.

الثانية عشرة! وفقط؟! عما قليل ستبدأ المشاكل الأكبر حجماً والأخطر نوعاً..

.. وعندما سيصر ابنك أو تصر ابنتك على اقتناء كلب خاص، كما تقضي العادات المتحضرة، فإنك سترفض ذلك بعناد خاص. سيتصورونك ترفض لأسباب مادية واقتصادية، فيذكرونك بأن الدولة تدفع مساعدة خاصة للذين يربون حيواناً منزلياً.. عندها ستنفجر فيهم في نفاذ صبر؛ إنك لا تريد الكلب ليس لأسباب اقتصادية، ولكن لأنه نجس. ولأنك تصلي وتتوضأ وتريد المحافظة على ذلك.. ولأن البيت الذي فيه كلب لا تدخله ملائكة..

عندها ستلمح في عيونهم تلك النظرة التي ستفصح لك عن حقيقة الحال: نظرة فيها هزء وسخرية ورفض وازدراء واستغراب، كلها دفعة واحدة..



وستعرف آنذاك أنك أنت وأولادك تعيشون كلٌّ في عالم آخر،

ينتمي كل منكم إلى حضارة أخرى مختلفة تماماً..

وستعرف أن الهوة السحيقة التي تفصل بينك وبينهم صارت بحجم المسافة التي تفصل بين بلدك الذي عشت وتربيت فيه، وبين البلد الذي ولدوا ونشؤوا فيه..

.. لا أريد إحراجك، ولكن، عندما تكبر ابنتك أكثر وأكثر، ستعرف ماذا سيحدث أيضاً..

* * *

(ذات يوم، في أمسية باردة، سيدق عليك الباب - دون موعد سابق - ستفتح: إنه استفتاء آخر..

لقد تعودت الأمر وانتميت له، بل الأهم من ذلك أنك صرت فخوراً به، وفي المرات النادرة التي اتصلت بأقربائك أو أصدقائك القدامى، كنت تشرح لهم كيف أنهم يأخذون رأي الناس في كل شيء هنا، وكيف أن الرأي الذي رجحته قد حاز على موافقة البرلمان في مرة أو اثنتين من العشر مرات التي استفتوك فيها..

لنر ماذا لديهم هذه المرة. لغتك صارت أفضل بالتأكيد. لكنك صرت تحتاج إلى النظارات في كل ما تقرأه.

ستستلم ورقة الاستفتاء وتشكر الطارق بأسلوب لطيف وكلمات مهذبة صرت تتقنها كما يتقنها أهل البلد الأصليون.. وستذهب لارتداء نظاراتك..

وستقرأ.

سيمتقع وجهك، ستتجمد أطرافك، ستشعر بالاختناق، تريد أن تتنفس، تريد أن تصرخ، تريد كوباً من الماء..

أو تريد أن تجهش بالبكاء..

.. هذه المرة، إنهم يستفتونك في الإجهاض.

وتورد المقدمة التي تصدرت الاستفتاء الخلاف بين بعض الجمعيات الأهلية والحكومية وبعض القوانين في هذا الشأن، فبعض الجمعيات تقترح أن يقر حق الاجهاض للفتيات ممن هن دون سن السادسة عشر.

وجمعيات أخرى تحاول منع ذلك مع تقديم ضمانات حكومية بمساعدة الأم (الطفلة) برعاية وليدها بنفسها.. أو بإعطائه لجهة تقوم بتربيته..

وجمعيات أخرى تحاول الوقاية من ذلك كله.. كيف؟ عبر نشر الوعي الطبي عن الموضوع: تعميم الحبة على كل الفتيات اللائي بلغن، ونشر الواقي المطاطي بشكل مجاني بين أولاد المدارس..

ستسود الدنيا في وجهك..

لو كانت ورقة الاستفتاء تقريراً طبياً تستلمه حول نتائج الفحص المختبري الذي أجريته، وكشف لك عن حالة سرطان متقدمة وميؤوس منها، لما كان وضعك أسوأ..

نعم، لقد هربت من الصداع والحمى والالتهابات، ونجحت في الهرب، لكن ها هو السرطان يغدر بك ويكشف عن وجهه متأخراً..

.. وستتذكر برعب وهلع أن ابنتك قد أتمت السادسة عشر منذ شهرين فقط، وستتساءل ما إذا كانت زميلاتها يتناولن الحبة بانتظام وزملاؤها يستعملون الواقي.. وستبعد الخاطر الآخر عن ذهنك، لكنه سيظل هناك..

.. ويستفتونك في الإجهاض، وقبلها جاؤوا يستفتونك في اللواط، بالذات في حق اللواط في التوارث فيما بينهم حتى لو كانت معاشرتهم بدون عقد زواج رسمي!، يومها كدت أن تطرد الموظف الواقف على الباب وأحجمت عن ذلك وفضلت أن تأخذ الورقة وتبين رأيك الرافض حتى الموت، لكن البرلمان في النهاية أقر الأمر بأغلبية شبه ساحقة، فأنت وأمثالك تنتمون لفصيلة منقرضة لم يعد يحسب لها حساب..

.. إنهم يستفتونك في الإجهاض، وأنت تعلم علم اليقين أن الاجهاض حرام قطعاً في دينك.. ولكن الحمل السفاح غير الشرعي حرام أيضاً..

.. ويستفتونك في الإجهاض، وأنت قادم من حضارة الآباء والأشقاء فيها يخجلون من ذكر حمل بناتهم وأخواتهم حتى بعد الزواج، ويتهربون من التواجد في البيت ليلة زفافهن..

... وستذكر كيف أنك هربت من البيت لا تلوي على شيء، ليلة زفاف شقيقتيك، وكيف أنك أخفيت خبر الزفاف عن أقرب أصدقائك، رغم أنك تقر، من وراء عواطفك، أنها سنة الحياة الدنيا..

.. وها هم يستفتونك في الإجهاض، وأنت لا تستطيع أن تتخيل ابنتك حبلى حتى بزواج فكيف تتخيلها كذلك بدون زواج..

.. نعم، سيستفتونك في الإجهاض. وأنت لا تريدها أن تجهض لأنك لا تريدها أن تحبل، لأنك لا تريدها أن تزني أصلاً.

نعم. ليست الحبة هي الحل في رأيك، ولا الواقي المطاطي اللعين.

.. ولكنك تريدها عفيفة مثل والدتك، شريفة مثل شقيقاتك .

العفة هي الخيار في رأيك.

لكن هذا ليس وارداً ضمن بيانات الاستفتاء.

والكلام عن جنس بعد الزواج فقط يبدو هنا مضحكاً مثل نكتة قديمة لم تعد تضحك أحداً، غريباً مثل منظر فيل يرتدي ملابس الباليه.. منقرضاً مثل ديناصور عتيق ضاع في حرب الديناصورات وصراع البقاء..

.. تريد أن تتنفس.. تريد أن تصرخ.. تريد أن تجهش بالبكاء..

تدور بك الدنيا وتدور.. وتسود في وجهك..

يستفتونك في الاجهاض، وسيهبط عليك ذلك الشعور الغريب بأنك خرجت من حفرة صغيرة في وطنك، لتسقط في قاع هاوية سحيقة هنا في الغربة..

لن تصدق ذلك، لكن هناك فقط ستتمنى لو أنك بقيت.. بقيت.. بقيت..

.. ولأنك تعرف أن ذلك لن ينفع، فإنك ستتمنى لو أنك

ترطم رأسك بجدران شقتك الواحد تلو الآخر..

لكن حتى هذا لن تفعله.. ستحجم عنه في اللحظة الأخيرة، إذ أن جيرانك هناك ينزعجون بسهولة من أصوات كهذه.. وهم سيخبرون الشرطة التي ستأتي لتحذرك من تكرار إزعاجات كهذه..

.. وستضيق عليك الدنيا بما رحبت. ستجد نفسك محصوراً في قمقم..

الشقة التي دفعت فيها ذخيرة عمرك ستبدو حقيرة وتافهة..

رصيدك في البنك سيبدو لك كما لو كان ثمناً بخساً لشرف ابنتك..

كل ضماناتك الاجتماعية والصحية والمادية التي حصلتها هنا، ستبدو لك كرشوة دفعها لك الشيطان في مؤامراته العتيقة تلك..

نعم. ستضيق عليك الدنيا بما رحبت، وستنتحب روحك مثل طفل صغير لا يزال يتبول على نفسه ليلاً.. ويهرع إلى حضن أمه كل صباح خجلاً مما فعل.

لكن.. أين منك حضن أمك وقتها؟؟.

* * *

وأقول لك: (فأين تذهبون؟)[التكوير26].

* * *

هل تعتقد أني قد قفّلتها من جميع الجهات؟.

لا. ليس الأمر هكذا..

وإن كان يبدو كذلك..

* * *

تذكر مرة، منذ فترة ليست بعيدة، قلت لي أن **الإنسان مخير وليس بمسير..**

كان الأمر يخص موضوعاً صغيراً شاكستك فيه بإلحاح..

أقول لك الآن: نعم، كنت على حق، الإنسان مخير وليس مسيراً.

.. وخاصة في مواضيع كبيرة كهذه..

أنت بنفسك تختار هذا المصير، أنت وليس غيرك تقرر إن كانت ابنتك ستتعرض لموقف كهذا أو إنك ستجنبها وإياك هذا الموقف..

أنت يا صديق من يقرر.. وأنت يا صديق من يختار..

ولا يعني هذا أن تراجع قرار السفر. لا يمكن أن أكون قد سرحت بك طيلة هذه الصفحات لأوصلك إلى هذه النتيجة، أعرف أنك ستقتلني لو فعلت ذلك..

لكني أود أن أقول لك أن بعد كل خيار هناك خيارات أخرى..

حياتنا هذه ليست خياراً واحداً نؤديه ونستسلم بعدها لكل ما يحدث بنا..

حياتنا ليست مفترق طريق منفرد ووحيد نختار أي جهة سنسلك وينتهي الأمر بعدها..

أبداً.. كل خيار يفتح سلسلة من الخيارات..

وكل مفترق طريق يحوي خلفه سلسلة من مفترقات طرق..

وفي كل خطوة من خطوات حياتنا يوجد قدران: نختار واحداً منهما بملء إرادتنا..

فإذا كنت قد اخترت السفر، فلا يعني ذلك أنك ستختار ترك دينك..

وإذا كنت اخترت الغربة، فلا يعني ذلك أنك ستصبح غريباً عن ربك..

وإذا كنت قد اخترت جواز سفر آخر، وجنسية أخرى، فلا يعني ذلك أنك قد فقدت هويتك الحقيقية الساكنة في أعماقك.. وانتماءك الداخلي المزروع في أحشائك..

صحيح أن الكثير ممن سافروا وهاجروا واغتربوا عن أنفسهم وواقعهم وإرثهم وصاروا كائنات هجينة ومسخة.. لكن، أليس هذا ما يحدث هنا أيضاً لبعض الناس؟ وإن كان بنسبة أقل..

الجغرافية يا صديق قد تعقد الأمور، قد تصعبها.. لكنها أبداً لا تملي شروطها علينا..

الأمر أصعب هناك، أعترف..

لكنه لن يكون مستحيلاً..

* * *

قلت لك إنني وقفت مرة في مفترق طرق - في وسط الشارع بالضبط - وهزني سؤال محتمل لأولادي عندما يكبرون: لماذا أبقيتنا هنا؟.

إنه سؤال يزلزل أي أب حريص على أولاده..

لكن بعدها فكرت، وقدرت، وقررت أن سؤالاً كهذا سيكون بالتأكيد أخف وطأة من سؤال آخر، في مناسبة أخرى، وزمن آخر، ومكان آخر، سيسألونني إياه بلوم ولؤم واتهام فيما لو سافرت بهم، سيقولون: لماذا جئت بنا إلى هنا؟.

.. أنا حسمت أمري وقتها في مفترق الطرق ذاك.

لكن هذا لا يعني أنه الخيار الوحيد..

* * *

لأسباب عديدة، بعضها وجيه، وبعضها أقل وجاهة، صارت الأرقام الواقعية المجردة أبلغ من كل الكلمات وكل المشاعر وكل الصور الأدبية..

ولأنه كذلك، فإني سأذكر رقماً هائلاً أعتقد أنه يجسم كل ما ذكرته منذ البداية وحتى الآن، وأعترف أن الرقم صدمني، كما ربما سيصدمك، بل إنني رأيت كابوساً أذكر بوضوح أنني رويت لك جزءاً منه، وأعتقد الآن أن هذا الكابوس كان إسقاطاً لا واعيا لما قرأته في وعيي.. فلقد رأيت فيما يرى النائم شقيقتي المغتربة وابنتها (ذات الأحد عشر عاماً والتي لا تجيد اللغة العربية، بل العامية التي بدأت تضعف).. وهي ترتدي السواد ولعلي الآن أفهم أن ذلك الكابوس كان إسقاطاً للكابوس الآخر المجسم في رقم مجرد في إحصائية أكاديمية جامدة قرأتها وآلمتني كثيراً..

تتابع الإحصائية أفراد الجيل الثالث من المسلمين المهاجرين

في الولايات المتحدة، والجيل الثالث - ببساطة شديدة - يعني أولاد أولادك مباشرة، شيء قريب جداً وأقرب مما تتصور.. تتزوج، تنجب، بعد عشرين عاماً أو نحو ذلك يبدء أولادك بالزواج والإنجاب (أو بالإنجاب بلا زواج، حسب الإحصائية).. ويكون أولادهم هم الجيل الثالث، موضوع الإحصائية..

حسناً... ما هي النتيجة التي وصلتها الإحصائية؟؟ ما هو الرقم الذي وصلته؟؟

نعم. لقد حزرته.. لا بد أنه الرقم الغامض الذي يحتل العنوان، والذي حيرك حتى الآن.. ما علاقته بموضوعنا ونحن نكاد نصل إلى النهاية..

نعم.. يا صديق.. **تسعة من عشرة.**

تسعة من عشرة ماذا؟.. من كل عشرة من أفراد الجيل الثالث من المسلمين المهاجرين، هناك تسعة قد فقدوا تماماً كل صلة لهم بدين أجدادهم.. أضاعوا تماماً كل هوية تربطهم به.. وفقدوا كل جذر يصلهم بذاك الذي ينفع يوم لا ينفع لا مال ولا بنون ولا جواز سفر دانمركي ولا جنسية أميركية..

تسعة من عشرة!!.

* * *

(أعترف أني استهولت الرقم بادئ ذي بدء، وقلت لعل الإحصائية ركزت على فئة معينة فخرجت بهذا الرقم المرعب..

بعد أن راجعت ذاكرتي وبعض المعلومات العائلية عن أقارب لي هاجروا منذ زمن، وجدت أن الإحصائية ربما متفائلة



أكثر مما ينبغي!!..

تستطيع أن تعد معي، وأن أعد معك، أقارب لي، وأقارب لك، حصلوا على نسبة أعلى من هذه (!) وابتداءاً من الجيل الثاني، أولادهم المباشرين..

.. ولماذا نذهب بعيداً؟.. ها هو شقيقك - لحمك ودمك -، أولاده الثلاثة يذهبون إلى الكنيسة مع أمهم.. ثلاثة من ثلاثة، كم من عشرة ستكون نسبة أولادهم، أحفاد أخيك..

.. ولماذا أذهب أنا بعيداً؟.. لقد أخبرتك عن قريب لي هاجر قبل حوالي ثلاثة عقود، وكان والده سياسياً معروفاً تقلد مرة أو أكثر منصب رئاسة الوزارة، حفيد رئيس الوزراء العراقي هذا، يعمل - احبس أنفاسك - ضابطاً في البحرية الكندية..

مع معطيات كهذه، وتخص الجيل الثاني فحسب، تبدو الاحصائية مسرفة في التفاؤل.. مغرقة في الأمل..

وهو أمر يجعلني أترك التسعة، **وأتأمل في الواحد.. فأجده رقماً هائلاً عصياً يستحق الفخر والاعتزاز..**

واحد من عشرة نجا.. من كل عشرة هناك تسعة سقطوا.. وواحد فقط استطاع الإفلات..

واحد فقط قفز من السفينة الغارقة في قعر المحيط السحيق..

لكن ذلك لم يكن بالمصادفة أبداً..

في لحظة قرار.. لحظة حسم.. لحظة حزم..



في مفترق طرق.. في منعطف حاد..

في موقف صدق وقوة.. قرر أحدهم أن يهاجر لأسباب كثيرة..

لكنه قرر في الوقت نفسه، أنه لن يترك دينه هنا، كما سيترك منزل أهله وأصدقائه وملاعب صباه وطفولته.. وبينما كان قد وضع ملابسه الثقيلة وبعض الحاجيات الضرورية وربما الصور والتذكارات في حقيبة يده..

فإنه كان قد وضع دينه وعقيدته وإيمانه في عقله وقلبه ووجدانه.. وبينما كان يحرص على أن لا يتجاوز الوزن المحدد - حتى لا يدفع رسوماً وغرامات إضافية - فإنه كان قد حمل معه - في أعماقه - كلمة بوزن الجبال، لو عرفوا بوجودها لمنعوه من الدخول.. تلك هي هويته.. **لا إله إلا الله..** محمد رسول الله..

ثم وصل هناك. وتشبث بها هناك. وزادته الغربة انتماءً والتزاماً..

وبدلا من أن يغره بهرج الحياة هناك، تبين له من دينه مالم يكن يعلم.. وجد فيه الخيمة والدرع والحصن والدواء والوسادة والبوصلة والرادار. وجد فيه ذلك الدفء الذي يحتاجه في زمهرير الغربة.. وجد فيه الضمان الوحيد الحقيقي بين كل الضمانات الزائلة الأخرى، التي ربما كانت قد دفعته أصلاً للسفر..

.. ولم يكن الأمر سهلاً بالنسبة إليه.

لقد واجه صعوبات.. وعانى من مشاكل.. وصادف العراقيل.

أحياناً واجهوه بالاستهزاء، وأحياناً بالازدراء، وأحياناً بالعداء بلا سبب.

ضحكوا من حجاب زوجته، وسخروا منه لأنه لا يصافح النساء، وتعجبوا من طريقته في الصلاة، وتهامسوا بينهم على صيامه.

.. واعتبروه مغفلاً عندما أعلن عن امتناعه عن الخمر والخنزير..

لقد كانت جمرة ملتهبة. لكنه أمسك بها بقبضته بشدة، وعض عليها أحياناً بأسنانه.. في البداية أحرقت كف يديه ولسانه.. لكنها فيما بعد صارت تعطيه الطاقة اللازمة للمواصلة..

لقد صبر. وصمد. وظفر..

أعرفته؟..

إنه جد هذا الذي نجا: الواحد من العشرة.

* * *

مقابل الكابوس هناك ثمة حلم (أو سمها رؤيا إن شئت)..

ومن أقاصي اليأس، يولد دوماً منتهى الأمل..

.. ومقابل خيار الضياع والاغتراب والإجهاض والهاوية السحيقة، هناك أيضاً خيار الالتزام والانتماء والهوية العميقة عمق الجذور..

ومقابل تلك الشجرة الملعونة، وأولئك الضائعين الملتفين حولها، توجد شجرة أخرى، موعودة، ومنصوبة للآخرين الذين اختاروا الطريق الآخر والانتماء الآخر..

نعم.. مقابل تخليهم عن شجرة عيد الميلاد، ستكون لهم شجرة أخرى..

* * *

.. قال ذلك الذي قوله دوماً الصدق ووعده لزاماً الحق (**بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء**)..

وطوبى.. اسم شجرة في الجنة..

لم أفهم هذا الحديث يوما كما أفهمه الآن. دوما كنت أفهم مغزاه على النحو الذي يخص معاناة المسلم في حياته اليومية التي قد تكون مغتربة - بشكل قريب أو بعيد - من متطلبات إيمانه.

لكن الآن فقط أفهم.. وأتفهم.. أولئك الغرباء في المنافي والأصقاع.. أولئك القابضون على الجمر. أولئك الذين لا يجدون حتى من يتكلمون له عن معاناتهم.. إنهم هم الغرباء حقاً، وهم الصامدون حقاً..

وهم الذين يستحقون طوبى... تلك الشجرة المخلوقة من أجلهم في الجنة..

* * *

ليلة رأس السنة.. وأنت راجع إلى شقتك.. ومظاهر العيد وفرحته وصخبه تملأ الشارع المتجمد.. والصغار يتراكضون فرحين بتلك الكذبة التي ترتدي الثياب الحمراء واللحية المزيفة، إنهم لا يصدقونها طبعاً، لكنهم فرحين من أجل هداياها وعطاياها..

.. وأنت تعود والعيد ليس عيدك، ملتفاً بمعطفك الثقيل والبرد يخترق عظمك حتى نخاعك..

.. سوف تمر أمام المتاجر، وقد عرضت في واجهاتها تلك الشجرة وزينتها الملونة المضيئة..

أقول لك، لا تقف أمامها طويلاً، لقد وعدك ذاك الذي لا يخلف وعده بخير منها..

إنها موجودة هناك. ومكتوبة باسمك لك وحدك..

عند مفترق الطريق ذاك، أمام واجهة المتجر، اختر الطريق الصحيح..

وأقول لك.. طوبى لك..

* * *

سلسلة الاختيارات والمواقف، والأسئلة التي نسأل أنفسنا وأجوبتنا عليها ستؤدي بنا في النهاية جداً، إلى مفترق طريق أخير وحاسم وقاطع ولا رجعة فيه.

لكن المشكلة مع مفترق الطرق هذا، أننا لا نأخذ القرار فيه لحظة وصولنا إليه، ولكن تراكم مجموع قراراتنا طيلة حياتنا السابقة هو الذي يحدد الاتجاه الذي سنسلكه..

أو بالأحرى الاتجاه الذي سيأخذنا..

كل قرار صائب، وكل قرار خاطئ، اتخذته ذات مرة في حياتك الغابرة، سيعود ليتجسم ويكون له وزن وحساب وأهمية.. في حياتك الأزلية..

كل قرار أنجاك من السقوط، وكل قرار أودى بك في الهاوية،

سيخرج من موقعه كأحرف جامدة في صحف الأعمال، ويتفاعل ويتوازن ليصير واقعاً مادياً محسوساً نعيشه بكل حواسنا..

فإما النجاة.. وإما السقوط في الهاوية السحيقة..

* * *

..وذات يوم، ربما كانوا يرونه بعيداً، ولكن نراه قريباً..

سيأتون مصفدين بالأغلال، وجوههم ربما غريبة عليك الآن، بعضهم يحمل شبهاً منك ومن أبيك ومن إخوتك، والبعض الآخر أخذ دماء غريبة عنك، سيأتون وهم مشدوهون، يفركون عيونهم ولا يكادون يصدقون ما يحدث لهم..

لقد قيل لهم شيء كهذا، أو سمعوا به منذ زمن سحيق القدم، لكنهم لم يأخذوه مأخذ الجد.. إن هي ألا حياتنا الدنيا..

ولكن الآن؛ ها هو يحدث بهم، لقد سمعوا به قبلها وها هم يسمعونه الآن! والفرق شاسع، والأمر هائل بل أكثر هولاً مما قيل لهم..

.. وسيوجه لهم سؤال: ألم يأتكم نذير؟..

ولن يمكنهم أن ينكروا: بلى، قد جاءنا نذير.. ولكن ستأتي طبيعتهم البشرية في التملص من المسؤولية والتلاوم، وسيقولون: ولكن جدنا هذا جاء بنا إلى تلك الأرض التي لا نفهم فيها لغة النذير..

وسيشيرون باتجاهك..

تسعة من عشرة يا صديق!.

سؤال كهذا في يوم كهذا: لماذا جئت بنا إلى هنا، هو المقابل الموضوعي للسؤال الأخير الذي قلت لك إنه أقلقني فترة: أولادي يسألون: لماذا أبقيتنا هنا؟.

وفي ميزان الأشياء، لا يتعادل السؤالان.

إنهم تسعة من عشرة يا صديق. فهل تحتمل أوزارك وأوزارهم معك؟.

أشفق عليك من ذلك.

وأهمس في أذنيك: خذ درب الواحد من عشرة. إنه في النهاية.. أفضل!.

* * *

يا صديق..

كثيرون يؤمنون، أنه في يوم ما، سيخرج الإسلام الجديد الذي وعدنا به من هناك.. من الغرب ذاته، واحد من أقرب أصدقائي يؤمن بذلك، وهي وجهة نظر لم أؤمن بها شخصياً، ليس لأني ضدها، ولكن لأني لم أر حقائق موضوعية تسندها..

لكن اليوم، أجد نفسي وأنا أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً، حتى لو كان ذلك دون حقائق موضوعية..

نعم، أتمنى، وأنا أجدك تحزم حقائبك، أن يكون ذلك صحيحاً، وأن تكون أنت من طلائع ذلك الإسلام هناك..

لذلك أقول لك، عندما تحزم حقائبك، ستترك أشياء كثيرة هنا، أترك ما شئت، وخذ ما شئت، لكن، أستحلفك بالله، خذ صدقك معك، خذ صفاءك الذي عرفت، خذ عمق

تجربتك.. وذاك الإيمان الذي تذوقت..

وعندما تصل إلى هناك، رغم كل الأضواء الزاعقة، ستجد الظلام الدامس الحالك السواد..

أقول لك: لا تلعن الظلام.. ولا تشعل شمعة..

ولكن دع النور الذي نبت في قلبك وبزغ في صدرك وسطع على وجهك ينير العالم من حولك هناك..

إنه نور محمد الذي أتحدث عنه، والذي رأيته على وجهك.. منذ أن كان ما كان..

نور محمد الذي هو بحرف الحاء والذي أتمنى أن لايسقط من لسان أبنائك وأبنائهم..

نور محمد الذي نحب (بالحاء أيضاً..) ونعشق (بالقاف الأشد صعوبة..).

والذي وعدنا أن نلتقي به، وهو الذي لا يخلف الميعاد..



* * *

.. هكذا، وإلا فلا!.

فجر 2002/12/17